

حالة طوارئ

ألبير كامي

العدد الثامن

مارس 2009

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تـــألـــيـــف:

ألبـــيـــر كـــامي

ترجمة وتقديم:

د. كوثر عبدالسلام البحيري

مـــراجـــعـــة:

يحـــيى حـــقي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

من
المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

حالة طوارئ

تأليف: ألبير كامي
ترجمة وتقديم: د. كوثر عبدالسلام البحيري
مراجعة: يحيى حقي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩ / الطبعة الأولى ١٩٨٩
دولة الكويت

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 264 - 7

رقم الإيداع: (٢٠٠٨/٠٠٦)

حالة طوارئ

ألبير كامي

الفهرس



مقدمة
بقلم المترجمة

ولد ألبير كامي في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ في «مندوفي»، وهو حي من أحياء مدينة قسطنطينة الجزائرية، وتم تعميده في هذه المدينة. وكان والده عاملا في إحدى شركات النبيذ، ومن أصل إلزاسي ونشأ نشأة مسيحية. أما أمه كاترين سانتيس، وهي من أصل إسباني، فهي كاثوليكية لاتمارس طقوس دينها. وكانت جدته التي تولت تربيته لفترة من صباه وكانت صاحبة تأثير عليه، كاثوليكية تقية.

وقد التحق كامي بإحدى المدارس الحكومية خلال الفترة ١٩١٨ - ١٩٢٣، وتابع الدراسة بعد ذلك مواصلا دراسته العليا تحت إشراف الأستاذ جان جرونييه. ومن هنا بدأ احتكاكه بالفلسفة التي حصل على الليسانس فيها من جامعة مدينة الجزائر، وواصل دراسته العليا، فحصل على دبلوم في الدراسات اليونانية والمسيحية، وخصوصا أفلوطين والقديس أوغسطين، كما درس باسكال وكيركجارد. وفي هذه الفترة اتصل بالحزب الشيوعي واعتنق الآراء اليسارية. غير أنه لم يلبث أن ترك هذا الحزب، وشارك بدلا من ذلك في نشاط الحزب التحرري الوطني في الجزائر. وفي عام ١٩٣٨ عمل كامي محررا في جريدة «الجزائر جمهورية». ولكنه غادر الجزائر بعد ذلك ليعمل في باريس في صحيفة «باري - سوار» فترة قصيرة، عاد بعدها إلى الجزائر مرة ثانية ليعمل بالتدريس في مدينة وهران، وبدأت علاقته بجان بول سارتر عام ١٩٤٤. ومنذ ذلك التاريخ حفلت حياته بالإنتاج الأدبي الغزير المتتابع حتى مقتله في حادث سيارة عام (١٩٦٠).

ونورد الآن طرفا من أهم أعمال كامي، في عام ١٩٤٠ كتب قصة **الغريب**، وانتهى في العام التالي من كتابة **أسطورة سيزيف**، وفي عام ١٩٤٥ أخرجت له مسرحية **كاليجولا**، وبعد عامين نشر قصة **الطاعون**. وفي عام ١٩٤٨ كتب مسرحية **حالة طوارئ** التي نقدم لها. وكذلك مسرحية **العادلون**. وفي العقد

الأخير من حياته نشر ثلاثة كتب هي **الصيف، والسقطة، والمنفى والمملكة**. وحصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٧.

لم يكن كامي فيلسوفا ولا معتنقا لنظرية فلسفية معينة، بل كان مفكرا له أسلوبه الذاتي. كما لم يكن من تلامذة جان بول سارتر ولا من الذين يعتنقون المذهب الوجودي. ولم تكن العلاقة بينهما سوى علاقة تفاهم فكري دام بعض الوقت، ثم ما لبث أن بددته الأيام وفصمت عراه الاختلافات الفكرية.

ولعل من أهم النواحي التي تثير انتقاد المعاصرين في ألبيركامي موقفه من الإيمان أو طريقة تفهمه لوجود الخالق. وكما أسلفنا فقد نشأ كامي نشأة دينية بعض الشيء، ولكنه ما كاد يشب عن الطوق حتى تخلى نهائيا عن إيمانه. ومع ذلك فقد كان من أكثر الكتاب قدرة على إثارة الإعجاب بالمخلوقات الخارقة وبالطبيعة التي هي من أول معجزات الخالق.

ولعل من أهم الأفكار التي حدت كامي على أن يبتعد عن الإيمان هي فكرة عذاب الأبرياء ولاسيما الأطفال في الكوارث الطبيعية التي لا ذنب لأحد فيها. ومن أهم هذه الكوارث الطبيعية الأوبئة وهذه الفكرة ليست جديدة في الأدب الفرنسي، ومن قبل أثارها فولتير في قصيدته الشعرية المعروفة «مأساة لشبونة»، حيث تحدث عن الزلزال الذي أصاب مدينة لشبونة في عهده وقتل الكثير من الأبرياء.

ويرى كامي أنه لو تفشى وباء مثل الطاعون في مدينة ما وأخذ يفتك بالناس فتكا دون ما ذنب من أحد لصعب على العقل أن يصدق أن هـذا انتقام من السماء لأن أهل المدينة قد حادوا عن الصواب واندفعوا وراء الغواية والشهوات. ولعل من أجمل ما كتب، تلك الصفحات التي تنبض بالألم في رواية «**الطاعون**» والتي يصف فيها العذاب الهائل الذي حاق بطفل أصيب بالطاعون، حتى أن القسيس الذي حضر احتضاره شعر بإيمانه وكأن صاعقة قد زلزلته زلزالا.



وكان لهذه الفكرة من التأثير على نفس كامي ما جعله يعالجها مرتين، مرة في روايته **الطاعون**، ومرة أخرى في مسرحيته **حالة طوارئ** [1] التي نقدم هنا ترجمة لها.

وقد اختار كامي ميدانا لروايته **الطاعون** ميناء وهران الجزائري. أما في مسرحيته فقد اختار ميناء قادش الإسباني الذي لم يعد له وجود. ويقصد الكاتب من ذلك عدم تحديد زمان الرواية مكتفيا بأنه أي زمان في الماضي. وعلى الرغم من ذلك فثمة تفصيلات قليلة قد نستدل منها على أن زمان الرواية هو العصر الأندلسي.

تدور أحداث المسرحية، كما أسلفنا، في ميناء قادش الأندلسي، ولعل أول تشابه بين رواية **الطاعون** والمسرحية هو أن الأحداث في الحالتين تدور في أحد الموانئ ولعل تفسير ذلك أن الطاعون غالبا ما يبدأ تفشيه في الموانئ وينقل عن طريق الفئران التي تعيش في السفن حين ترسو السفينة على الميناء، وينزل أحد الفئران حاملا الميكروب إلى الميناء.

وثمة تفسير آخر لهذا التشابه هو شدة العذاب الذي يعانيه مجتمع الميناء من العزلة التي تفرض عليه في حالة الوباء، وهو الذي اعتاد الحياة منفتحا متصلا دواما بالعالم الخارجي.

فرض وباء الطاعون إذن على سكان ميناء قادش بعد مرور أحد النجوم المذنبة بالمدينة، وهو نذير شر كان عادة يتبعه ظهور وباء الطاعون. وعلى الرغم من أن أهل قادش لم يكونوا يعيشون تحت حكم مثالي، بل كان حاكمهم أنانيا لايفكر إلا في ملذاته الخاصة، وينفر من أي تغيير يستتبع مجهودا، فقد كانوا سعداء بحريتهم، لايرضون منها بديلا ويتحملون في سبيل الاحتفاظ بها كل رذائل الحكم الذي كان يرسخ على أنفاس المدينة.

---

(١) الأصل الفرنسي للعنوان هو L'Etat de Siege والترجمة الحرفية له هي «حالة حصار»، ولكننا فضلنا ترجمته إلى «حالة طوارئ» لأن المسرحية تصور مجتمعا كان في ظروف غير طبيعية طرأت عليه، لاتلبث أن تزول فيعود المجتمع إلى حالته العادية.



وما كادوا يشعرون بأن أبواب المدينة قد أغلقت عليهم الواحد تلو الآخر حتى كان همهم هو الجري ناحية البحر محاولين الهرب. وكانوا وسط الوباء، وبعد أن سيطر المرض على حياتهم وكيف طريقة تفكيرهم، لايهفون إلا إلى النسمة الرطبة التي تأتي من ناحية البحر وإلى السفينة التي تمخر عبابه حاملة من على متنها إلى أركان العالم حيث يستنشقون عبير الحرية في الفضاء العريض.

ويقهر الطاعون سكان المدينة ويخضعهم لسلطانه وجبروته، وتدين له الجباه، ويضع الشعب السدادات في الأفواه حتى لا ينبس ببنت شفة. ويستفيد الكثير من الانتهازيين من هذ الظروف التعسة مثل القاضي كازادو. ولكن هل يستطيع أي وباء أو أي مصيبة أن تقهر إرادة الإنسان الحر وتقضي عليه قضاء لا رجعة فيه ؟ هذا ما يتعارض مع فلسفة ألبير كامي، فهو يؤمن بالإنسان وبأنه يستطيع أن يقهر كل شيء لو سيطر على إرادته سيطرة تامة. فإذا توصل إلى ذلك فليس ثمة قوة في الوجود تستطيع السيطرة عليه أو الحد من حريته وإرادته.

وهذه الفلسفة تتمثل في دييجو بطل المسرحية، فما هو الدور الذي أداه دييجو؟ إنه يمثل الصفوة من الجنس البشري التي لاتقبل الخضوع ولا الخشوع وتؤمن بنفسها إيمانا تاما. ولقد رفض دييجو أن يخضع للطاعون الذي حاول قتل إرادته بجميع الوسائل. وعلى الرغم من إصابته به فحينما رأى الطاعون أن فردا واحدا وسط قطعان البشر التي ذلت وخضعت - فردا واحدا يرفع الرأس - أدرك أن نهايته قد اقتربت.

وفعلا ينتصر دييجو ويضرب أعظم الأمثال لجموع الناس التي كانت قد فقدت كل أمل في تنفس عبير الحرية. غير أنه كان لابد من أن يدفع ثمن انتصاره غاليا.. فإما أن يعيش هو، أو تعيش فيكتوريا أحب الناس إلى قلبه. ومثله مثل جميع الأبطال المتميزين الذين يأتون إلى الأرض لضرب أمثلة البطولة والعظمة، ويكونون كالذبالة التي تضيء للناس وهي تحترق، يفضل دييجو أن يموت هو وتعيش فيكتوريا.

وهكذا ندرك أن الطاعون بالنسبة إلى كامي لايعني الوباء في حد ذاته، بل المصائب الكبرى التي قد تشمل الديكتاتورية والاستعمار وقهر الإنسان للإنسان.



وهو يرى أنه مهما كان المصاب جللا فلا بد له من نهاية. ونهايته لا تأتي إلا بالإرادة وتمسك الإنسان بحريته وإيمانه بها. وهو يرى أن ثمة طائفة ممتازة ومتميزة من البشر تولد على الأرض بين الحين والحين لتنشر هذه الفلسفة وتكون للناس نبراسا. وإذا كانت الأغلبية العظمى من الناس تدخل في نطاق القطيع أو السائمة مسلوبة الإرادة التي تجر إلى مصيرها جرا فإنه يكفي وجود فرد واحد من هذه الطبقة الممتازة، مثل الدكتور برنار ريو في روايته **الطاعون**، ومثل دييجو في مسرحيته **حالة طوارئ**، ليوقظها ويكون هو نفسه مثلها الأعلى، ويعلمها كيف تحترم بشريتها وتتمسك بإرادتها وتتخطى الصعاب وتسير على الأشواك في سبيل تحرير إرادتها.

تلك هي الفلسفة العظمى التي نادى بها ألبير كامي في رواية **الطاعون**، وعززها في مسرحية **حالة طوارئ**، فالطاعون هو قمة البلاء. ووسط البلاء قد يفقد الإنسان إيمانه بنفسه ويطأطئ الرأس ويستسلم لمصير يعتقد أنه محتوم. ولكن كلما كان البلاء شديدا سنحت الفرصة لوجود الإنسان المنقذ. وتلك حقيقة من حقائق الطبيعة الكبرى. فالرسل ومن في مستواهم أو من يقرب من منزلتهم لايحلون في المجتمعات البشرية إلا حين يستشري البلاء ويعم الفساد. ويكفي ظهورهم ليبقى الإنسان شامخا بحريته وإرادته التي لو شاء لما استطاعت أي قوة على الأرض أن تنال منها شيئا.

فن كامي المسرحي

إن أكثر ما يميز كتاب القرن العشرين الفرنسيين كلهم، وفي جميع ألوان الأدب، هو البحث عن الجديد. ولقد كان ألبير كامي جديدا كل الجدة في جميع ما كتب، فحين أراد أن يكتب قصة صاغها في صورة مخالفة للشكل التقليدي الذي تعودناه من كتاب القصة، بل إنه لم يسمها قصة وفضل أن يطلق عليها كلمة «تأريخ» إيهاما للقارئ بأنه يسرد عليه أحداثا حقيقية عاشها يوما فيوما، وذلك في قصته المعروفة **الطاعون**، ولكننا لو تعمقنا بحث التكوين الهيكلي للطاعون لوجدنا على الفور أنها تحتوي على جميع مقومات القصة، ففيها البطل والبطلة (وإن كانت أقل أهمية)، وفيها العقدة أو قمة الأزمة، وفيها انفكاك العقدة في نهاية الرواية بخلاف الإطار العام وهو مدينة حل بها وباء الطاعون.



وكذلك الحال بالنسبة إلى مسرحية **حالة طوارئ**، فقد أراد ألبير كامي أن يعطيها تكوينا وحبكة مسرحية مختلفة تماما عن التكوين والحبكة الكلاسيكية، فلم يقسم مسرحيته إلى مشاهد ولا إلى فصول، فقد اعتدنا أن تكون المسرحية الكلاسيكية من خمسة فصول، ثم نحا المحدثون نحوا آخر بأن جعلوها من ثلاثة فصول، أو من فصلين أو من فصل واحد على أن يقسم الفصل إلى عدة مشاهد . أما كامي فقد قسم مسرحيته إلى ثلاثة أقسام تتوالى فيها المشاهد في وقت واحد تقريبا أو بالتبادل معتمدا على وسائل الإخراج الحديثة.

ويعتمد الإخراج الحديث على اتساع خشبة المسرح وتغيير الإضاءة فيها من مكان إلى مكان بسرعة فائقة، وبذا يمكن عرض عدة مشاهد في وقت واحد، من دون الحاجة إلى المسرح الدائري. فتارة تركز الإضاءة على السوق فنرى الشعب تمثله الجوقة ونرى السماك والعراف والعجوز الحيزبون والنشالين ... الخ. ثم تركز الإضاءة على بيت الحاكم فنرى الحاكم يحيط به قضاته ومستشاروه، وفجأة نلقى أنفسنا في بيت القاضي كازادو فنشاهده في عراك مع زوجته التي خانته ودست عليه ابنا ليس ابنه وهكذا، وكل هذا التغيير في المشاهد لايعتمد إلا على إظلام جزء من المسرح وتركيز الإضاءة على الجزء المراد عرضه.

ويفترض ألبير كامي في مسرحيته كذلك أنها تعتمد على الوسائل المتقدمة جدا في الإخراج، وذلك فيما يختص بالمذنب وظهوره تارة صغيرا وتارة كبيرا، تارة بعيدا وتارة قريبا، وكذلك الحال فيما يختص بالمؤثرات الصوتية. ولابد أن نلاحظ هنا أن ظهور مذنب أو إله في المسرح الفرنسي ليس جديدا، وكان يحدث حتى قبل المسرح الكلاسيكي لاسيما في الملاحم التي تعتمد على الإثارة والإدهاش والتي يسميها الفرنسيون èpopèes والتي كانوا يظهرون فيها الآلهة الميثولوجية والظواهر الطبيعية بوسائل فنية يسمونها: Deus ex machina . أي إظهار الآلهة بواسطة الآلات الخاصة، وغني عن القول أنها كانت وسائل تعتبر بدائية، إذا قيست بوسائل اليوم. وكذلك يستعين كامي في إخراج مسرحيته بالرياح الصناعية لأهمية الرياح في هذه المسرحية.



أما فيما يختص بالشخوص فقد تمسك ألبير كامي بفكرة البطل والبطلة، وهما دييجو وفيكتوريا، وربطهما برباط سام من الحب الذي جعل منه أجمل وأنبل شعور يمكن أن يطرق القلب البشري، والهدف الأسمى الذي لا يشعر الإنسان بأهميته الحيوية بالنسبة إليه وإلى حياته والمحيطين به، إلا حين يحرم منه، كما جعل منه العامل الذي يخفف جو الطاعون الثقيل من جهة، والذي يعيش آثاره الهدامة على النفوس والنواحي المادية من حياة الإنسان من جهة أخرى.

واستعار كامي صفة من صفات الملحمة حين جسد الطاعون وسكرتيرته في صورة رجل وامرأة، وأدخل العامل غير الطبيعي الذي يجعل السكرتيرة تشطب في دفترها اسما فيسقط إنسان ميتا في أي ركن من أركان المدينة.

وفيما عدا ذلك فقد انتقى كامي مجموعة من الشخوص يعتبر كل واحد منهم نموذجا أو نمطا لطائفة من طوائف هذا المجتمع، بحيث يكون الجميع معا صورة مصغرة للمجتمع كله، فنرى الحاكم وقضاته وحرسه، ونرى طبقة المفكرين ممثلة في دييجو وفيكتوريا، والشعب ممثلا في السوق العامة، وفيها نرى الصياد والعراف وبائعة العطارة وألوانا مختلفة ممن يرتادون السوق. أما نادا فهو الأبله السكير الذي تسيل مع ذلك الفلسفة والحكمة على لسانه كما تسيل الخمر، ويعتبر عنصرا مهما من عناصر الفكاهة والتخفف من ثقل جو الطاعون المقبض في هذه المسرحية. وعموم الشعب تمثله الجوقة كما أسلفنا.

أما الديكور فلابد أن يكون بسيطا غاية البساطة في مسرحية كهذه. ففي الخلفية نرى البحر وأمامه الرصيف تقريبا بصفة دائمة، فيما عدا المشاهد الداخلية مثل التي تدور في بيت القاضي كازادو وغيرها، ولايحتاج الأمر إلا إلى صورة خلفية للدلالة على مكان المشهد مثل قصر الحاكم أو مقر حارس المقبرة ... الخ. وهذه البساطة في الديكور من مستلزمات سرعة تغيير المشهد من مكان إلى مكان على المسرح، بحيث إذا عدنا إلى مكان ما مرتين كان المشهد في المرة الثانية غيره في المرة الأولى.

وألبير كامي من الكتاب الذين يعتبرون مجالهم الحقيقي في البحث والدراسة هو نفس الإنسان لا مظاهره المادية، وكل مظهر مادي له دلالة نفسية. في مسرحية



حالة طوارئ يدرس الكاتب عدة مشاعر إنسانية بعضها يهدم الإنسان فلا تقوم له قائمة، وبعضها - على العكس من ذلك - يبعث فيه الحياة ويسمو به إلى مصاف المعجزات. ومن المجموعة الأولى الكراهية والخوف والأنانية. وقد رأينا كيف تمكن الطاعون من السيطرة على المدينة ببث الكراهية بين الناس، وكيف أن الأنانية تجعل الفرد يرفض إعطاء لقمة من الخبز لفرد آخر، وكيف أن الخوف جعل دييجو يطيش صوابه ويهرب ولا يأبه بنشر العدوى لغيره عن طريقه، لولا أن ارتد إليه صوابه فيعود لإتمام رسالته.

أما المشاعر البناءة التي تسمو بالإنسان فهي الحب والتضحية، وقد تجسدا في هذه المسرحية في دييجو وفيكتوريا، فكل منهما يحب الآخر أكثر من نفسه، وكل منهما على استعداد للتضحية بحياته من أجل الآخر.

وفيما يختص بأسلوب كامي اللغوي في هذه المسرحية، نراه يحاول أن يعطي كل مجال اللغةَ التي تناسبه ويُنطق كل شخص من شخوصه باللغة التي يتكلم بها في واقع الحياة. فلغة الحاكم هي لغة التعالي والزهو والغرور، ولغة الشعب سواء على لسان رواد السوق أو الجوقة هي لغته في واقع الحياة، واهتماماته مادية أكثر منها معنوية تنحصر في الاحتياجات اليومية والشهوات الجنسية. وتتجلى قوة كامي اللغوية والتعبيرية، وطرافته في العثور على الجديد في الوصف والتعبير في أماكن كثيرة من المسرحية يبلغ فيها حد البلاغة الشاعرية النادرة. ويمتاز كامي بأنه يختار الفاظه بحيث تكون دلالة اللفظ في حد ذاتها شيئًا يسيرا بالنسبة إلى ما يخفى تحته من معان، ولذلك فالقارئ مضطر إلى أن يقرأ السطور وما بين السطور، وإلا فلن يبلغ فهمه للمسرحية الحد الذي ينشده المؤلف.

إلى أي لون من ألوان المسرحيات تنتمي مسرحيتنا هذه ؟ أهي تراجيديا (مأساة) أم كوميديا (ملهاة)، أم بين بين من ألوان التراجيديا / الكوميديا أو الميلودراما ؟

الواقع أن كامي - كما أسلفنا - اهتم بالبحث عن الجديد، شأنه في ذلك شأن جميع الكتاب المحدثين، ورفض رفضا تاما التقيد باللون الواحد في المسرحية الواحدة. فهي تجمع بين الألوان جميعا فإذا استشرى الطاعون وأخذت السكرتيرة



تحذف في مفكرتها وتسقط الأجساد تتوالى الواحد تلو الآخر، فنحن في جو المأساة أو الملحمة، أما إذا انتقلنا إلى السوق وتشاجرت العجوز مع بائع السمك فنحن في صميم جو الملهاة، وإذا تحدث نادا السكير بالحكمة سواء صراحة أو تلميحا، وأوضح للناس واقع أمورهم فنحن كذلك في جو الملهاة ذات الهدف الفلسفي.

ولعل أبلغ ما يقال في هذا ما يقوله ألبير كامي نفسه في الإخطار الذي نورده فيما يلي:

«إن مسرحية حالة طوارئ تعتبر من أجمل مسرحيات القرن العشرين وأعمقها، وقد بذل فيها مؤلفها جهدا فنيا ضخما يضمن لها حياة طويلة على مر الأزمان».

ونرجو أن يستفيد القارئ العربي من قراءتها أو رؤيتها على المسرح ويستفيد من جميع النواحي الفنية والفلسفية التي أراد الكاتب تقديمها.

❝ ❝ ❝



إخطار

في عام ١٩٤١ خطرت لصديقي بارو فكرة كتابة مسرحية حول موضوع الطاعون، وراود الموضوع نفسه كذلك أنطوان أرتو. وفي السنوات التي تلت ذلك بدا لبارو أنه من الأسهل في هذا الصدد اقتباس الكتاب الكبير «**مذكرات عام الطاعون**» لدانييل ديفو Danial Defoe، ووضع حينئذ تخطيطا هيكليا لإخراج هذا الكتاب.

وحين تبادر إليه أنني أوشك من جهتي على نشر قصة حول نفس الموضوع عرض علي أن يكتب الحوار حول هذا التخطيط الهيكلي. وكانت لي أنا أفكار أخرى، أهمها أنه كان يبدو لي من الأفضل طرح فكرة دانييل ديفو جانبا والعودة إلى الفكرة الأولى التي راودت بارو.

كان الأمر يتعلق، بصفة عامة، بكتابة قصة يستطيع أن يفهمها جميع المشاهدين في سنة ١٩٤٨. مسرحية **حالة طوارئ** ما هي إلا تصوير لهذه المجادلة التي أعتقد - وتلك ناحية من نواحي ضعفي - أنها تستحق الاهتمام.

ولكن :

١ - ينبغي أن يكون واضحا أن **حالة طوارئ**، على الرغم مما قيل عنها، ليست بأي حال من الأحوال اقتباسا لروايتي.

٢ - لا يتعلق الأمر معها بهيكل مسرحي تقليدي، ولكن بمسرحية هدفها الصريح هو خلط جميع ألوان التعبير المسرحي ابتداء من الحديث المنفرد العاطفي إلى المسرح الجماعي مع المرور بالمسرح الصامت والحوار البسيط والملهاة التهريجية «الفارس» Farce والأناشيد المرتلة.

٣ - إذا كان صحيحا إنني كتبت النص برمته فهذا لايمنع أن اسم بارو ينبغي أن يكون مقرونا باسمي، فله الحق في ذلك كل الحق. وإذا لم يكن بالمستطاع تنفيذ ذلك لأسباب بدت لي أهلا للتقدير فلابد لي من أن أقول بوضوح إنني مازلت مدينا لجان لوي بارو...

ألبير كامي

٢٠ نوفمبر ١٩٤٨



حالة طوارئ

مسرحية من ثلاثة أقسام

تأليف

ألبير كامي

ترجمة وتقديم

د. كوثر عبدالسلام البحيري

مراجعة

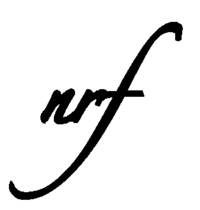
يحيى حقي

العنوان الأصلي للمسرحية :

ALBERT CAMUS

L'ÉTAT DE SIÉGE

Spectacle en trois parties



GALLIMARD

شخصيات المسرحية

La Peate	الطاعون
La Secretaire	السكرتيرة
Nada	نادا
Victoria	فيكتوريا
Le Juge	القاضي
La femme du Juge	زوجة القاضي
Diégo	دييجو
Le Gouverneure	الحاكم
L' Alcade	قاضي البلدية
Les femmes de la Cité	نساء المدينة
Les Hommes de la Cité	رجال المدينة
Les Gardes	الحرس
Le Condoyeur des Morts	اللحاد

أول عرض لها قدمته فرقة مادلين دينو وجان - لوي بارو يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٤٨ على مسرح مارييني.

القسم الأول



تقديم

افتتاحية موسيقية محورها نغمة رنانة متصلة تذكر بصفارة الإنذار. يرفع الستار. المسرح يسوده الظلام.

تنتهي الافتتاحية، ولكن نغمة الإنذار لاتختفي، وتظل تسمع وكأنها طنين آت من بعيد.

وفجأة من غياية المسرح يبزغ من ناحية الغناء نجم مذنب ويتخذ مساره ببطء إلى ناحية الحديقة.

وترتسم تحت ضوء المذنب - كأنما على ستار لعبة خيال الظل - شخوص جدران مدينة إسبانية محصنة، وأناس عديدين تدير ظهورها للجمهور وتقف جامدة بلا حراك، الرؤوس مشرئبة نحو المذنب، والحوار يكاد يكون غير مفهوم كما لو كان همهمة مبهمة.

- إذن لو فني العالم.
- حسبك أيها الرجل، العالم قد ينقضي أجله، أما إسبانيا فهيهات أن تموت.
- حتى إسبانيا قد يجري عليها الموت.
- اجث على ركبتيك
- إنه مذنب نذير شر للعالم.
- لا لإسبانيا أيها الرجل، لا لإسبانيا.

ويستدير رأسان أو ثلاثة، ويتحرك شخص أو شخصان في حذر، ثم يستعيد الجميع وقفتهم الجامدة. حينئذ يشتد الطنين حدَّة، ويصبح خارقا للآذان ويتموج في نغمة موسيقية كأنه نطق بكلام له معنى وينطوي على التهديد، على حين يتضخم حجم المذنب بإفراط. وفجأة تند صرخة هائلة من امرأة، فتخرس النغمة الموسيقية وتعيد المذنب إلى حجمه المألوف وتهرب المرأة وهي تلهث، ويشيع الهرج والمرج في الميدان، ويزداد تحول الكلام في الحوار من اللغط إلى الهسيس، فتزداد قدرة الأذن على التقاطه وإن لم يتأت بعد فهمه.

- إنه علامة على الحرب.
- بكل تأكيد.

- لا علامة هو على شيء.
- الأمر يتوقف...
- كفى، إنه إنه الحر.
- حر مدينة قادش.
- كفى.
- ما أقوى صفيره.
- والأدهى أنه يصم الآذان.
- إنه طالع نحس رمى ظله على المدينة.
- (يتوجع) أي قادش، إن طالع نحس رمى ظله عليك.
- صه، صه.

يعود الناس فيركزون أنظارهم على المذنب، ويسمع في وضوح هذه المرة صوت ضابط من الحرس المدني.

ضابط الحرس

المدني	:	عودوا إلى منازلكم. لقد شاهدتم ما شاهدتم وهذا يكفي. إنه ضجيج للا شيء، هذا كل ما في الأمر. ضجة كبيرة بلا طائل، ما الذي جد ؟ إن قادش هي دائما قادش في نهاية الأمر.
صوت	:	ومع ذلك فتلك علامة. وليس ثمة علامات بلا مقتضى.
صوت	:	ربنا ياله من رب عظيم جبار.
صوت	:	الحرب وشيكة، هذا ما تقوله العلامة.
صوت	:	في عصرنا لم يعد أحد يؤمن بالعلامات أيها الأجرب، فمن حقنا أن لنا عقولا أذكى من أن تخطئ الفهم.
صوت	:	نعـم، ولهـذا تتصدع منا الـرؤوس لكي نحسـن فهم هذه العلاقة، نحن الآن بلا إدراك، شـأننا شأن البهائم، غير أن البهائم يفرغ منها بالذبح.
الضابط	:	عودوا إلى منازلكم، فالحرب شغلتنا نحن لاشغلتكم.



نادا (بمضض) ليت قولــك كان صدقا، ولكــن كلا، فالضباط يموتون في فراشهم، أما طعنة السيف فلنا نحن.

صوت نادا – ها هو نادا، هو هو الأبله.

صوت أي نادا، أنت حقيق بأن يكون عندك العلم، قل لنا ما معنى هذا ؟

نادا (وهــو من ذوي العاهـــات) إن ما أريد قولــه لكم لاتحبون سماعه وســتتهكمون عليه. اســألوا الطالب فهو سيصبح طبيــب بعد قليل. أمــا أنا فأتحدث إلـــى زجاجتي. (يرفع زجاجته إلى فمه)

صوت خبّرنا يا دييجو، ما عساه يريد أن يقول ؟

دييجو وما شـأنك ؟ احتفظ بقلبك ثابتا. ويكفيك هذا.

صوت اسألوا ضابط الحرس المدني.

الضابط إن الحرس المدني يرى أنكم تخلون بالنظام العام.

نادا إن الحرس المدني محظوظ، فله أفكار بسيطة.

دييجو انظروا، إنه يطلع مرة أخرى.

صوت ربنا يا له من رب عظيم جبار.

(يعود الطنين من جديد والمذنب في دورته الثانية)

– أما من نهاية ؟ أما من اكتفاء ؟

– قادش.

– إنه يصفر.

– إنه طالع نحس.

– رمى ظله على المدينة.

– الزموا الصمت، الزموا الصمت.

وتدق الساعة الخامسة ويختفي المذنب ويطلع النهار.

نادا (يقهقه ضاحكا وهو يقتعد صوة ترقم طول الطريق)



اسمعوا إذن ما أقوله لكم، هكذا أنا نادا نور هذه المدينة علما ومعرفة وابنها السكير، ازدراء مني لكل شيء وتقززا من كل مجد، أنا الذي يسخر الناس مني لأني احتفظت بحرية مواجهتهم باحتقاري لهم، بعد هذه العلامة التي هي عندي أشبه بالألعاب النارية يهمني أن أبادركم بتحذير أتبرع به، ولا أسألكم عليه أجرا، اعلموا عني أننا الآن قد وقعنا في النكبة التي تترصدنا، ويستزاد مع مضي الزمن افتراسها لنا. أنبهكم إلى أننا كنا قد وقعنا فيها من قبل، ولكن من لها بمن يلحظها سوى سكير مثلي، فما هو إذن موقفنا الآن ؟ على الرجال الحكماء منكم تبصيرنا به بحدس من مظنتهم. أما أنا فقد استقر ذهني على رأي منذ أمد بعيد، ولا زعزعة عندي لمبدأ أعتنقه. الحياة والموت سيان، والإنسان حزمة من نفس الحطب الذي يوقد للمحكوم عليهم بالموت حرقا.

صدقوني، ستصادفكم متاعب جمة، فإن هذا المذنب علامة شر، إنه يوقظكم من غفلتكم، فالخطر وشيك.

قد لا يبدو هذا الخطر أهلا للتصديق، وهذا ما كنت أتوقعه منكم، فمادمتم قد تناولتم وجباتكم الثلاث وأديتم فرصة عملكم ثماني ساعات، وأرضى الواحد منكم زوجته وضرّتها فقد تصورتم أن كل شيء قد احتل موقعه اللازم له ضمن النظام السائد. كلا، لم تجعلوا مواقعكم وفق نظام، بل ضمن صفوف تنظيم، فتلزمون صفكم. والآن قد استقامت صفوفكم وارتسم الاستسلام على وجوهكم. إذن قد نضجتم لكي تلتهمكم النكبة.

دعوني أيها الإخوان الطيبون، فقد فرغت من توجيه إنذاري إليكم وأرضيت ضميري. أما بقية الأمور فلا تنشغلوا بها فتصريفها في يد وقوى تعلوكم، وأنتم تعلمون ماذا ينتظر منها، أنها قوى لا تتساهل.



القاضي كازادو : لا تجدِّف ياناادا، أنت من قديم تبيح لنفسك أن تأثم بالتطاول على السماء.

نادا : أتراني أيها القاضي قد ألمحت إلى السماء في كلامي ؟ إنني على كل حال أقرها على جميع ما تفعل، هذا حكمي...

القاضي كازادو : إنهم الإباحيون الذين على شاكلتك هم الذين يجلبون علينا الإنذارات السماوية. ذلك لأنه في الواقع إنذار، ولكنه موجه إلى جميع الذين فسدت قلوبهم. ولتخشوا جميعا عواقب أوخم تتوالى، وادعوا السماء أن تكفِّر خطاياكم، اجثوا إذن على ركبكم. اقول اجثوا على ركبكم. (الجميع يجثون على ركبهم ماعدا نادا)

القاضي كازادو : لتكن لك خشية من السماء يانادا واجث على ركبتيك.

نادا : الجثو لا أستطيبه لأن ساقي متخشبة. أما عن الخشية التي تريدها أن تتلبسني فلم تعد دعوة إليها تفاجئني، فأنا أصبحت على علم بكل الذي ينبغي لي أن أخشاه، وأسوأ ما أخشاه هو مواعظك الأخلاقية.

القاضي كازادو : ألا تعتقد إذن في شيء أيها التعس ؟

نادا : لا أعتقد في شيء في هذا العالم، اللهم إلا النبيذ ...

القاضي كازادو : اغفر له ياإلهي مادام لا يعي ما يقول، واحفظ هذه المدينة مدينة أبنائك.

نادا : انصرفوا، فقد انتهى القداس. إليَّ بزجاجة يا دييجو احتفاء بالمذنب ثم قص عليَّ مغامراتك الغرامية.

دييجو سوف أتزوج من ابنة القاضي يانادا. وأود لو أنك من الآن فصاعدا كففت عن توجيه الإهانات لأبيها. إن في ذلك إهانة لي أنا أيضا.

(أصوات طبول تقرع ويدخل مناد يحيط به الحراس)

المنادي : أمر من الحكومة: على كل فرد أن ينسحب ويستأنف مزاولة أعماله. إن الحكومات الصالحة هي الحكومات التي لا



يحدث فيها شيء. تلك هي إرادة الحاكم ألا يحدث شيء في حكومته حتى يظل حاكما صالحا كما كان دائما. وعلى ذلك فنحن نؤكد لأهالي مدينة قادش أن شيئا لم يحدث اليوم يستحق أن يفزعوا ويقلقوا. ولذلك يجب على كل فرد، ابتداء من هذه الساعة السادسة أن يعتبر رأى مذنب في سماء المدينة أمرا لا صحة له. وكل من يخالف هذا القرار، وكل ساكن من سكان المدينة ينبغي له أن يتحدث عن المذنبات بطريقة تختلف عن كونها ظواهر فلكية، فهذا شأنها في الماضي وفي المستقبل، فسوف يعاقب بلا رحمة.

(دقات طبول وانسحاب المنادى)

نادا : حسن ياديجو، ماذا أنت فاعل؟ إنها ضالة عثروا عليها.

دييجو : إنها حماقة. والكذب دائما حماقة.

نادا : كلا إنها سياسة، وسياسة أؤيدها مادامت تهدف إلى إلغاء كل شيء. يا له من حاكم طيب هذا الذي يحكمنا هنا. فإذا أصاب ميزانيته العجز، وإذا دخلت الخيانة الزوجية إلى بيته، فما عليه إلا أن يحذف العجز وينكر الخيانة الزوجية. أيها الزوج المخدوع، إن زوجتك مخلصة، أيها المشلولون، إن في مقدوركم المشي، أيها العميان، أبصروا، تلك هي ساعة الحق.

دييجو : أنت تنعق كالبومة، فكف عن إنذارنا بالمصائب، فإن ساعة الحق التي تعنيها إنما هي ساعة القضاء بالموت.

نادا : صدقت، فلتمت الدنيا بأكملها. آه لو استطعت أن أجعلها تمثل أمامي قطعة واحدة كأنها ثور ترتجف قوائمه وتتقد عيناه الدقيقتان بالمقت والضغينة، ويتبلل خشمه بلعاب عكر رخو مثل كساء متسخ من الدنتيلا، إذن يا لها من لحظة، فإن يدي، هذه التي أوهنها الكبر لن تتردد، ستخز منه حبل الوتين بطعنة واحدة فتهوي الدابة المصعوقة، وتظل تهوي إلى الأبد عبر أجواء تتوالى بلا نهاية.



دييجو	:	أفــلا تبقــي على شــيء لا تحتقــره يانــادا ؟ اقتصد في احتقارك، فلسوف تحتاج إليه ليسندك.
نادا		إني لست في حاجة إلى شيء. ولديَّ من الحقد ما لاينفد، إلى أن ينفد عمري، فما من شيء في هذه الأرض، ملكا متوجا أم نجما مذنبا أم شريعة أخلاقية، أراه أبدا أسمى مني.
دييجو	:	اهدأ ولا تفرط في التعالي، وإلا تناقص حب الناس لك.
نادا	:	إنني فوق كل شيء مادمت لم أعد محتاجا إلى شيء.
دييجو	:	لا أحد يتعالى على الشرف.
نادا		وما هو الشرف يابني؟
دييجو	:	إنه ما يجعلني أقف على قدمي.
نادا	:	إن الشــرف ظاهرة فلكية فــي الماضي أو في المســتقبل، فلتحذفها.
دييجو	:	أتركك بخيــر يانادا، ينبغي لي أن أنصرف، فهي تنتظرني، وانتظارها لي هو الذي يجعلني لا أؤمن بالكارثة التي تعلنها أنت، لابد لي أن أتوفر على بناء ســعادتي وهذا عمل طويل يتطلب أن يسود السلام كل المدن والقرى.
نادا	:	لقــد قلت لك ذلك من قبل يابنــي. إننا قد وقعنا فعلا في الكارثة، فلا تأمل شــيئا، والملهاة يوشك أن يرتفع ستارها ويكاد الوقت لايسعفني لكي أمضي إلي الســوق وأشرب نخب هلاك الخلق جميعا.

(تنطفئ الأضواء كلها)

(نهاية التقديم)

(تعود الإضاءة. هرج ومرج عام. الإشارات أشد اندفاعا والحشد أسرع تنقلا، موسيقى، أصحاب المتاجر يسدلون بالجذب خصاصها، ويزيحون معارضهم المرصوصة في مقدمة المسرح فينكشف ميدان السوق. فريق المنشدين في جموع الشعب، يتقدمه نفر من صائدي الأسماك يملأون الميدان شيئا فشيئا، وهم في نشوة كبيرة)

الجوقة

إن شيئا لا يحدث، ولن يحدث شيء... إلى الهواء الطلق. إنها ليست كارثة بل وفرة من بركات الصيف وخيراته. إن الربيع ها هو ذا لم يكد يستوفي أيامه، وإذا بثمار البرتقال الذهبي، برتقال الصيف، ترشق بها الأرض، مقذوفة إليها على عجل عبر السماء فتعتلي قمة الموسم وتشقق من النضج بطونها فوق إسبانيا فيسيل منها الشهد، وإذا بجميع الفواكه التي جاد بها كل صيف في أرجاء الأرض، من عنب عسلي القشرة وشمام في لون الزبد وتين يزخر بالدم ومشمش يسطع باللهب يتوالى في ذات الوقت ورودا، وتتدحرج إلى معارض أسواقنا. إيه أيتها الفاكهة. إنها هنا تختم رحلتها الطويلة السريعة التي أتت بها من الريف، حيث كانت قد بدأت تثقل بالماء والسكر فوق حقول زرق من فرط دفئها، ووسط آلاف من العيون المشمسة يتجمع تدفقها شيئا فشيئا في تيار واحد من ماء الشباب تشربه الجذور والسيقان، فيصعد به إلى قلب الثمار ثم ينتهي بأن يسيل على مهل كأنه نضح لاينضب من نافورة من عسل، فتسمن عليه الثمار وتزيد من ثقلها درجة بعد درجة، الثمار تثقل ثم تثقل حتى يبلغ من ثقلها أنها تغطس في غمر من ماء السماء، وتتدحرج فوق العشب المكثف، وتركب الأنهار، وتعبر كل الطرق فيزفها من جميع أركان الأفق هتاف الفرح من الشعب وصدح الأنغام من الأبواق.

(عزف قصير من أبواق)

تأتى في زحام إلى مدن البشر شاهدة على أن الأرض طيبة، وأن السماء أم الضرع لا تخلف للرخاء موعدا للقاء. (صيحة فرح عالية) كلا، إن شيئا لا يحدث، ها هو الصيف. إنه رسول يحمل العطايا لا الكوارث، أما الشتاء فحسابه مؤجل والخبز اليابس له يومه لما تشرق شمسه، أما اليوم فخيرات وبركات: سمك المرجان والسردين والروبيان أسماك طازجة قادمة من بحار هادئة، ثم الجبن المخلوط بالأعشاب المعطرة ولبن المعز ذو الرغوة كأنها رغوة صابون تدعكه يد غسالة، وعلى صحاف من الرخام شرائح من اللحم تتقبض ناصيتها لفائف من الورق الأبيض، لحم تُشم منه رائحة الكلأ ويتيح للإنسان أن يجتر الدم وعصارة الحياة والشمس معا في آن واحد.



إلى الكأس، إلى الكأس. لنشرب كأس المواسم، لنشرب حتى النسيان فلن يحدث شيء.

(صيحات فرح وصدح أبواق موسيقى. وتدور

مشاهد صغيرة هنا وهناك في السوق)

المتسول الأول : أعطني صدقة يارجل، أعطيني صدقة ياجدتي.

المتسول الثاني : بادروا بالإحسان قبل فوات الأوان.

المتسول الثالث : إنكم تفهمون مقصدنا.

المتسول الأول : لم يحدث شيء، وهذا أمر مفروغ منه.

المتسول الثاني : ولكن ربما يحدث شيء.

(ينشل ساعة أحد المارة)

المتسول الثالث : ضاعفوا صدقاتكم دائما، فضمان ثوابين خير من ضمان ثواب واحد.

(في سوق السمك)

الصياد : سمكة مرجان طازجة وكأنها زهرة من زهور القرنفل، زهرة البحار وأنتم لا شيء يعجبكم.

العجوز : إن سمكتك هي كلب من كلاب البحر.

الصياد : كلب بحر؟ لم يدخل كلب بحر هذا الحانوت، إلا حين أتيت أنت.

العجوز : إيه يابن أمك. انظر إلى شعري الأبيض.

الصياد : انكشح أيها المذنب العجوز.

(يقف الجميع بلا حراك. كل منهم وضع سبابته فوق شفتيه)

ديبجو : طال عليّ البعاد.



فيكتوريا	أيها المجنون، لقد افترقنا في الســاعة الحادية عشرة هذا الصباح.
دييجو	نعم، ولكن أباك كان موجودا .
فيكتوريا	إن أبي قال نعم، وكنا على يقين من أنه سيقول لا .
دييجو	لقد أصبتِ في التوجه إليه رأسا ومواجهته.
فيكتوريا	لقد كنت مصيبا ، وأثناء اســتغراق أبي في التفكير كنت أنا مغلقة العينين، استمع في أعماق نفسي إلى خطوات تجري من بعد وتقترب وتزداد سرعة، حتى جعلت أوصالي جميعا ترتعد . ثم تــرتج باللهفة ثم أخلدت إلــى الهدوء . إنها في انتظارنا نحن.
دييجو	أما أنا فلم أكن بالأصم ولا الأعمى، ولكني كنت لا أسمع إلا صهيل قلبي الطروب، فقــد نلت فرحتي فجأة فلم يُمتحن صبــري. إيه يامدينة النور، ها هم قد أسلــموك إليَّ مدى الحياة حتى الساعة التي تدعونا فيها الأرض إلى أحضانها، في الغد سوف نرحل معا، ونمتطي صهوة جواد واحد .
فيكتوريا	نعــم تكلم بلغتنا حتى لو بدا ذلك جنونا في حكم الآخرين. وفي الغد ســوف تلثم فمي، وأنظــر أنا إلى فمك، ويتأجج خدي نارا . قل لي، أهذه هي ريح الجنوب ؟
دييجو	إنها ريح الجنــوب وهي تلهبني كذلك بسـيــاطها . أين هي النافورة التي تسقيني منها ؟
	(يقتــرب ويدخــل ذراعيه من بــين العــوارض وتتضم هي كتفيه)
فيكتوريا	آه. كم يضنيني انتقاد حبي لك. اقترب أكثر.
دييجو	كم أنت جميلة !
فيكتوريا	كم أنت قوي!



ديبجو: بماذا تغسلين وجهك هذا حتى يصبح في بياض اللوز.

فيكتوريا: إني أغسله بماء صاف ويضفي عليه الحب رونقه.

ديبجو: وشعرك في مثل طراوة الليل.

فيكتوريا: هذا لأني كل ليلة انتظرك في نافذتي.

ديبجو: هل الماء الصافي والليل هما اللذان يضفيان عليك رائحة شجرة الليمون؟

فيكتوريا: كلا، إنها ريح حبك التي تأتى لها في يوم واحد أن تدثرني بالزهور من الرأس إلى القدم.

ديبجو: وسوف تسقط الزهور.

فيكتوريا: ولكن الثمار في انتظارك.

ديبجو: وسوف يأتي الشتاء.

فيكتوريا: ولكن بصحبتك. أتذكر ما غنيت لي أول مرة ؟

ألم يزل ذلك صحيحا ؟

ديبجو: بعد موتي بمائة عام

سوف تسألني الأرض: ألم يحن بعد نسيانك لها؟

فأجيب: كلا لم يحن بعد، لم يحن بعد .

(فيكتوريا تلزم الصمت)

ديبجو: ألا تقولين شيئا؟

فيكتوريا: ألجمت السعادة لساني.

(تحت خيمة العراف)

العراف لامرأة: إن الشمس ياجميلتي اجتازت برج الميزان لحظة ولادتك، مما يتيح اعتبارك من مواليد برج العذراء مادام برجك الطالع هو الثور الذي يعلم الجميع أنه خاضع للعذراء. إن طبيعتك إذن عاطفية حنون ومرحة، ولك أن تطيبي نفسا بذلك على رغم أن برج الثور يؤهل للعزوبة، وقد يترك هذه



الصفـــات القيمة معطلة. وعلـــى كلٍّ فأنا أرى اندماجا بين العـــذراء وزحل، وهو اندماج ضار بالزواج والإنجاب. وهذا الإندماج ينبئ كذلك بضروب عجيبة من الاشـــتهاء يخشى معها من أوجاع تصيب البطن. ومع ذلك فلا تتواني واسعي إلى الشـــمس التي تزيد من عافية الذهن وجلاء الضمير، وهي المســـيطرة على عصارات البطن واختاري أصدقاءك أيتهـــا الصغيرة من بـــين مواليد برج الثور، ولا تنســـي أن موقفك يتجه اتجاها سليما مواتيا يحقق لك المرح. الأجرة ستة فرنكات.

(يقبض النقود)

المرأة: شكرا. أنت واثق مما قلت لي أليس كذلك ؟

العراف: دائما أيتهـــا الصغيرة، دائما. ومع ذلك ينبغي ألا يغيب عن حســـابنا أنه لم يحدث شيء هذا الصباح، هذا هو المفهوم وإن الذي لا يحدث قد يفســـد طوالعي، أنا لســـت مسؤولا عما لم يحدث.

(المرأة تنصرف)

العراف: اطلبوا طالعكم. الماضي، الحاضر والمســـتقبل الذي تضمنه الكواكب الثابتة. أقول الثابتة (ثم يحدث نفسه) وإذا تدخلت فيه المذنبات صارت هذه المهنة مســـتحيلة. يجب أن يصبح المرء حاكما.

(بعض البوهيميين معا : صديـــق يريد لك الخير، ســـمراء معطرة كزهر البرتقال، سفر طويل إلى مدريد، ثروة موروثة عن أمريكان)

واحد منهم فقط: بعد وفاة الصديق الأشـــقر ســـوف تتلقى خطابا أسمر.

(في غياية المســـرح منصة ترفعها حوامل خشـــبية كالتي يستعين بها المسرح المتنقل، فوقها رجل يستجلب إليه انتباه الجمهور بدقات من طبلة عسكرية).

المثلون افتحن أعينكن الجميلة أيتها السـيدات الرشيقات. وأنتم أيها السـادة أعيرونا آذانكم. إن الممثلين الذين ترونهم هنا هم من بين أرباب مهنتهم، أعلاهم قدرا وأوسـعهم شـهرة في مملكة إسـبانيا. وقد أقنعتهم بعد مشقة بترك البلاط والحضور إلى هذه السـوق، سيمثلون لكم لإمتاعكم فصلا مبجلا من مسـرحية الأرواح للكاتب الخالـد بدرو دي لا ريبا، وهي مسرحية ستدهشـكم، رفعتها أجنحة العبقرية دفعة واحدة إلـى علياء الروائع العالميـة صاغتها بمقدرة جبارة، وبلغ من عشـق ملكنا لها أنه أمـر بأن تمثل أمامه مرتين يوميا، وكان سيسـعده أن يواظب على مشـاهدتها لـو لم أبصر هـذه الفرقة المنقطعة النظيـر بأن المصلحة والضـرورة الطارئة تقضيان بعرضها للتعريف بها في هذه السوق أيضا سُـموا بمدارك أهل قادش، وهم أفضل أبناء إسبانيا حنكة وفطنة! اقتربوا إذن فسوف يبدأ العرض.

(يبـدأ العرض فعلا، ولكـن أحدا لا يسـمع الممثلين، لأن أصواتهم تغطيها ضوضاء السوق)

- إلى الهواء الطلق إلى الهواء الطلق.
- ادخلوا لتروا حورية نصفها امرأة ونصفها سمكة.
- السردين المقلي، السردين المقلي.
- هذا أستاذ الهرب، فر من جميع السجون.
- اشتري طماطمي أيتها الجميلة، إنها ناعمة مثل قلبك.
- دنتلا وملابس الزفاف.
- بلا ألم ولا خداع العبان، إنه بدرو الذي يخلع الإنسان.

نادا (يخرج من الحان وهو سكران)

اسحقوا كل شـيء، هذه الطماطم وأشـباهها من القلوب فلنهرسها، وأستاذ الهرب نزج به في السجن، وأسنان بدرو نخلعهـا، والعراف الذي لم ينبئنا بكل هذا الذي سـنفعله

نسوقه إلى المشنقة. وحورية البحر سمكة فلنأكلها. وكل ما تبقى نطرحه إلا الخمر.

(يدخل تاجر أجنبي يرتدي ثيابا فاخرة إلى السوق وسط تسابق عدد كبير من الفتيات)

التاجر اطلبوا، اطلبوا الشريط الحريري، شريط المذنب.

الجميع صه صه.

(يذهب إليه الناس ويبينون له همسا في أذنه أن ذكره للمذنب في ندائه حماقة لا تسلم عقباها)

التاجر اطلبوا، اطلبوا شريط النجمة الأصلي.

(الجميع يشترون من الشريط، صيحات فرح، موسيقى، ويصل الحاكم وحاشيته إلى السوق ويقف كل في مكانه).

الحاكم إن حاكمكم يحييكم، ويسره أن يراكم متجمعين في الأسواق كالعادة بمعاملات تجلب الثراء والأمن على قادش. يقينا لم يطرأ طارئ تتغير به قادش، وهذا حسن لأن التغيير يقلقني، وأنا أحب عاداتي الوطيدة.

رجل من الشعب نعم أيها الحاكم، إن شيئا، لم يتغير حقيقة، وهذا ما نستطيع أن نؤكده لك نحن الفقراء. فأواخر الشهور مضبوطة، والبصل والزيتون والخبز هي ما نقيم به أودنا، أما الدجاج المحمر فنحن سعداء إذ نعلم أن غيرنا يأكله يوم الأحد دواما، وهذا الصباح طن نبأ مثير في المدينة وفوق المدينة. والحقيقة لقد اعترانا الخوف، لقد خشينا أن يتغير شيء وأن يضطر البؤساء فجأة إلى الاقتصار في طعامهم على الشكولاته. ولكن بفضل جهودك أيها الحاكم الصالح تم إعلاننا بأن شيئا لم يحدث وأن آذاننا قد أخطأت السمع. وعلى ذلك فها نحن معك مطمئنين.

الحاكم إن الحاكم سعيد بذلك، فليس في الجديد أي خير.

قضاة البلدية لقد أحسن الحاكم الكلام، فليس في الجديد أي خير،



ونحن قضاة البلدية سفراء الحكمة وتجارب السنين، نحب أن نتأكد على الأخص من أن فقراءنا الطيبين لم يرسموا على ملامحهم ظلا من السخرية، فالسخرية فضيلة هدامة، والحاكم الصالح يفضل عليها الرذائل البناءة.

الحاكم : حسب يومنا أن آمر بألا يتبدل أي شيء، فإني ملك الثبات.

سكارى الحان : نعم نعم نعم، لا لا لا. فلينقطع تبدل أي شيء.

(حول نادا) أيها الحاكم الصالح فكل شيء يدور حولنا، وفي هذا عذاب كبير. نحن نريد الاستقرار، فلتتوقف كل حركة، ولنطرح كل شيء سوى النبيذ والجنون.

الجوقة لم يتغير أي شيء، إن شيئا لا يحدث ولم يحدث أي شيء؟ فالفصول تدور حول محورها، وفي السماء اللطيفة تدور الكواكب الحكيمة التي تدين هندستها الهادئة هذه النجوم المخبولة التي تشذ عن القاعدة مراعي السماء بجدائل شعرها الملتهب، وتعكر بصباحها المنذر موسيقى الكواكب العذبة، وتشيع الاضطراب في الجاذبيات الثابتة أبدا، وتتفتها لتيار عنيف من الريح في انطلاقها المسعور. تشيع الاضطراب في هذا النسق الأزلي لتجاذب الأجرام فتتأزم دوراتها حول محورها ويكون له صرير، ثم تمهد في كل مفارق الطرق في السماء لوقوع مصادمات مروعة بين الأفلاك، حقا إن كل شيء قد انسلك في نظامه والعالم يتوازن والموسم في عزه واستقراره، يا للسعادة ! يا للسعادة! ها هو الصيف. ماذا يهم ما تبقى، فالسعادة هي ما نفخر به.

قضاة البلدية : إذا كان للسماء عادات فاشكروا عليها الحاكم مادام هو ملك العادات. إنه أيضا لا يحب الشعور المشعثة وكل من في مملكته حسن التمشيط.

الجوقة : نحن حكماء وسنظل حكماء مادام كل شيء لن يتغير أبدا. وماذا نفعل ولنا شعور مشعثة وعيون متقدة وأصوات حادة،



إن يكن لنا من قادم فخر فبسعادة غيرنا من الناس.

السكارى حول نادا : اطرحوا الحركـــة، اطرحوا كل شــيء، ولنمتنع عن التبدل لنمتنـــع عن التبدل، ولندع الســاعات تُــولٍّ، فنظام الحكم القائم ســيمضي بلا تاريخ، وهذا الموسم المستقر هو أحب المواسم لقلوبنا لأنه أشد حرا، فهو يحثنا على الشراب.

(ولكن نغمة الإنذار المحورية في اللحن الموســيقي، بعد أن كانــت تنبعث لفترة في طنين مخنــوق، إذا بها ترتفع فجأة وتبلــغ درجة الحدة على حين تدوي دقتان مكتومتان، وفوق المنصة الخشــبية في غيابة المسرح يتقدم أحد الممثلين إلى الجمهــور، وهو ماض فـــي أداء دوره بالإشـــارة لا باللفظ (البانتوميم) فإذا به يترنح ويســقط بين الجمع المحتشــد الذي يسرع إلى التحلق حوله، لا ينطق فمه بكلمة ولا يعبر عن معنى بإشارة وساد صمت مطبق.

لحظات من الجمــود، ثم يعم التدافع والتفرق. دييجو يشــق الجموع فتتراجع عنه ببطء حتى يتكشف له الرجل الصريع)

(ويقبــل طبيبان يفحصـــان الجثة ثم يبتعــدان عنها، ويدور بينهما نقاش ينم عن اضطراب شــديد. ويتقدم شـــاب إلى أحد الطبيبين يستفسره عما حدث فيجيبه بإشارات تنكر أن شيئا قد حدث، فيزداد الشاب بتشجيع من الجمهور إلحاحا وتضييقا عليه. يلتصق به ويمســكه من تلابيبه في حركة من يتوســل إليه ويستحلفه حتى تعلقت شـــفتاه بشفتي الطبيب فـــإذا بصرخة تند منه وتومئ ملامحهـــ بأنه التقط كلمة من فم الطبيب فيتراجع، وكأن الكلمة التي التقطها أكبر من فمه ولابد له من بذل جهــد كبير لكي يتخلص منها، فهو لاينجح إلا بعد مشقة عظيمة في أن يلفظها من بين شفتيه)

(الطاعــون. الجميع يجثون علــى الأرض، ويردد كل واحد منهــم هذه الكلمـــة بصوت تتصاعد قوتــه، وبتكرار تتزايد ســـرعته. وإذا بهم يفرون وتتألف منهم حلقات واسعة تدور



على المســرح حول الحاكم الذي عاد إلــى اعتلاء منصته. ويشتد حركة الجمع سرعة وتدفقا وهلعا، إلى أن يعلو صوت القسيس الشيخ، حينئذ يجمد الجميع في زمن متفرقة)

القسيس : هــا هو ذا العقاب قد وافانا والوبــاء القديم قد حط على المدينــة. إنه هو الذي ألفت الســماء دائما أن ترسـلـه إلى المدن الفاســدة لتميتها عقابا لها علــى خطاياها المميتة، صرخاتكم ستســحق في أفواهكــم الكاذبة، وخاتم من نار سيكوي قلوبكم، فلتصلوا الآن لإله العدل لكي يغفر. ادخلوا إلى الكنيسة، ادخلوا إلى الكنيسة.

(يندفع نفر من الناس إلى الكنيســة، وتتوزع بقيتهم جانب اليمــين وجانب اليســار في حركة آلية، على حين يســمع لجرس الكنيســة دقات صلاة الجنازة. وفي الجانب الثالث المتبقي من المسرح يقف العراف ويتكلم بلهجة محايدة تمام الحياد كأنه يقدم تقريرا إلى الحاكم)

العراف : إن نســقا حديثا لمواقع النجوم المعادية قد ارتسم فورا على نظام الفلك. إنه يدل وينبئ أن القحط والمجاعة والطاعون ستعم أرضنا أيا كانت الأحوال.

(ولكــن ثرثــرة جماعــة مــن النســاء تعلــو وتحجب كل الأصوات)

- كان في حلقه حيوان ضخم ينضح دمه بكركرة عالية كأنها صوت مضخة.
- كان عنكبوتا، عنكبوتا كبيرا أسود.
- أخضر اللون، كان أخضر اللون.
- بل كان سحلية من سحالي الأعشاب المائية.
- أنت لم تر شيئا، بل كان أخطبوطا في حجم طفل.



- ديبجو، أين ديبجو ؟
- سوف يبلغ من كثرة الموتى أن يعجز الأحياء عن دفنهم جميعا.
- وي ! لو استطعت الرحيل.
- الرحيل الرحيل.

فيكتوريا : ديبجو أين ديبجو ؟

(خلال هذا المشهد كله امتلأت السماء بالعلامات وازداد طنين نغمة الإنذار وضوحا وتوضيحا للذعر العام. يخرج رجل ذو وجه مضيء من أحد المنازل وهو يصيح: نهاية العالم في ظرف أربعين يوما. ومن جديد يوالي الذعر انتشاره والناس يرددون: «خلال أربعين يوما نهاية العالم». يأتي حراس ويعتقلون صاحب الوجه المضيء، ولكن في الناحية الأخرى ساحرة توزع العقاقير)

الساحرة : ترنجان[1] نعناع، شلبيه، ندى البحر[2]، زعتر، زعفران، وقشر ليمون وعجين اللوز، انتبهوا، انتبهوا، هذه العقاقير لا تخطئ.

(ولكن ريحا باردة تهب حينما تأخذ الشمس في المغيب، مما يجعل الناس يرفعون رؤوسهم إلى أعلى)

الساحرة : الريح، هذه هي الريح. إن الوباء لا يطيق الريح. سوف يتحسن كل شيء، وسترون صدق ما أقول.

(في اللحظة ذاتها تهدأ الريح، ويرتفع طنين نغمة الإنذار إلى ذروة الحدة، وتسمع الدقتان المكتومتان الثانية أسرع ملاحقة للأولى هذه المرة. يهوي رجلان إلى الأرض وسط

---

(١) نبات الليمون.

(٢) نباتات عطرية ذات رائحة زكية ومزيلة للمغص.



الحشـــد، فيجثو الجمع على الركـــب ويأخذون في الابتعاد عن جســـدي الرجلين ويتراجعون القهقرى، ولايبقى معهما إلا الساحرة، وهما مطروحان تحت قدميها، وقد بدت لكل منهما علامـــة على ثنية الفخذ والرقبـــة. يتلوى المريضان وتصـــدر منهما حركات قليلة، ثم يلفظان أنفاســـهما، على حين يهبط الليل ببطء على الجميع وهو ماض في انصرافه تاركا الجثتين وسط المشهد.

ضوء في الكنيســـة والقصر غارق في النور. ضوء في بيت القاضي. ينتقل المشهد بالتبادل بينهما)

قاضي البلدية الأول : إن الوباء ياصاحب الفخامة، ينتشـــر بســـرعة تفوق جميع تدابير الإغاثة، وقد عمت العدوى جميع أقسام المدينة على نحو فاق ظننا، مما يدفعني إلـــى الاعتقاد بضرورة إخفاء الموقف، وكتم الحقيقة عن الشـــعب بأي ثمن. وعلى كل في الوقـــت الراهن يهاجم الوباء ضواحـــي المدينة وهي فقيرة وغاصة بالســـكان، ووسط تعاســـتنا يعتبر هذا على الأقل أمرا مرضيا.

(همهمات تأييد في الكنيسة)

القسيس اقتربوا ليعترف كل منكم علنا بأســـوأ مـــا اقترف. افتحوا قلوبكـــم أيها اللعناء، وليجهر كل منكم للآخر بالشـــر الذي اقترفـــه والـــذي كان في نيتـــه اقترافه، وإلا فســـيخنقكم ســـم الخطيئة ويقودكم إلى الجحيم، كمـــا يفعل أخطبوط الطاعـــون... وأنا من جهتي أتهم نفســـي بأننـــي كثيرا ما قصرت في تقديم الصدقة.

(يتقـــدم بعد ذلك ثلاثة من الحاضريـــن للاعتراف واحدا بعد الآخر بين يدي القسيس، ويؤدي الاعتراف بالإشارات وحدها، على حين يتتابع الحوار التالي)

(في القصر)



الحاكم	:	كل شــــيء ســـوف يســـوء.. الذي يضايقني أنني كنت أريد الذهاب للصيد. إن مثل هذه الأمور تحدث حين يكون لدى المرء أعمال مهمة تنتظره.
قاضي البلدية الأول	:	لا تتخلف عن الصيد من كل بد، ولو لم يكن ذلك إلا لضرب المثل، فالمدينة ينبغـــي أن تعلم كيف عرفت أن تقابل المحنة بوجه تعلوه السكينة والاطمئنان.
الجميع	:	اغفر لنا يا إلهي ما جنته أيدينا وما لم تجنه قط.

(في بيت القاضي)

(القاضي يرتل الترانيم تحيط به أسرته)

القاضي	:	إن المولى هو ملاذي وحصني، لأنه هو الذي يحميني من فخ صياد الطيور ومن الطاعون القاتل.
الزوجة	:	كازادو، ألا يمكننا الخروج؟
القاضي	:	لقد أســـرفتِ في الخروج طوال حياتك يا امرأة، مما سلبنا السعادة.
الزوجة	:	إن فيكتوريا لم تعد، وأخشى عليها من الغواية.
القاضي	:	أنت لم تأخذك قط خشية على نفسك من الغواية فابتذلت الشـــرف.. ابقي هنا فهذا هو البيت الهادئ وســـط البلاء. لقد حسبت حسابا لكل شيء، وسوف ننتظر نهاية الطاعون ونحن متحصنون في البيت، ولن نعاني من شيء بعون الله.
الزوجة	:	الحق ما تقول يا كازادو، ولكنا لســـنا وحدنا، فثمة آخرون يتعذبون. وربما كانت فيكتوريا في خطر.
القاضي	:	دعي الآخرين، وشأنهم، وفكري في البيت. فكري في ابنك مثـــلا، وتزودي بجميـــع المؤن قدر طاقتـــك، وادفعي الثمن المطلـــوب، ولكن ضعيها في المخزن يا امـــرأة، في المخزن. لقد حان وقت التخزين (يقرأ) المولى هو ملاذي وحصني.

(في الكنيسة يستأنفون الترانيم)



الجوقة	:	ولن يكون عليك أن تخاف، لا من رعب الليل، ولا من السهام التي تطلق بالنهار، ولا من الطاعون الذي يسير في الظلام، ولا من الوباء الذي يزحف في عزّ النهار.
صوت	:	ربنا ياله من رب عظيم جبار.
		(ضوء على الميدان والشعب يتجول على أنغام الكوبلا)
الجوقة	:	سجلت اسمك على الرمال، وكتبت على ماء البحر، فلم نفر إلا بالعناء،
		(تدخل فيكتوريا. كشاف يوجه إلى الميدان)
فيكتوريا	:	دييجو، أين دييجو ؟
امرأة	:	إنه يلازم المرضى، إنه يعنى بالمرضى الذين يدعونه.
		(تجري إلى طرف المسرح وتصطدم بدييجو الذي يلبس قناع أطباء الطاعون. تتراجع وقد ندت منها صرخة فزع)
دييجو	:	(بلطف) هل أخيفك إلى هذا الحد يافيكتوريا؟
فيكتوريا	:	(في صرخة) آه يا دييجو، أخيرا وجدتك. ارفع هذا القناع وضمني إليك. ضمني إلى صدرك إلى صدرك، وهكذا أنجو من هذا الوباء. (دييجو لايتحرك)
فيكتوريا	:	ما الذي تغير بيننا ياديجو ؟ لقد مضت ساعات وأنا أبحث عنك وأجري هنا وهناك خلال المدينة، وقد روعني احتمال أن الوباء قد يصيبك أنت أيضا. وها أنت بهذا القناع، قناع العذاب والمرض ارفعه عنك، ارفعه عنك، أتوسل إليك وضمني إليك. (يرفع القناع) حين أرى يديك يعاودني عطش إلى لمستهما فيجف فمي. قبلني. (لايتحرك)



فيكتوريا : (وقد خفضـــت صوتها) قبلني. إني أموت من العطش. هل نســـيت أننا قد تمت خطبتنا بالأمس فقط ؟ لقد انتظرت طوال الليل مطلع هذا اليـــوم الذي تقبلني فيه بكل قواك. أسـرع أسـرع...

دييجو : لقد تملكني الإشفاق على المنكوبين يافيكتوريا.

فيكتوريا : وأنا كذلك. ولكن أول إشـــفاقي علينـــا نحن الاثنين، ولهذا بحثت عنك، وكنت أصيح في الشـــوارع، وأعدو نحوك وقد مددت ذراعيَّ لأشبكهما بذراعيك.

(تتقدم نحوه)

دييجو : لا تلمسيني، ابتعدي.

فيكتوريا : لماذا ؟

دييجو : إني لم أعد أعرف نفسي. لم أنكص قط عن منازلة إنسان رهبـــة منه، ولكن هذا الذي حدث لا قبل لي بمدافعته، ولو يســـلم لي الشـــرف، فلا نفع له عندي الآن. وأشعر بأنني فقدت إرادتي واستسلمت. (تتقدم نحوه) لا تلمسيني فربما أصبـــح المرض كامنا فيّ فأنقله إليك من غشـــيان الذهول عليَّ، ولســـت أدري حتى كيف السبيـــل إلى التقاط هؤلاء الناس وإضجاعهم في فراشـــهم، كيف ويداي ترتجفان من شدة البشاعة وعيناي تغيمان من فرط الشفقة، (صيحات وتأوهات) ومع ذلك فهم يدعونني، كما تســـمعين. يجب أن أذهـــب إليهم. ولكن اهتمي بنفســـك، بـــل اهتمي بنا نحن الاثنين فمن المؤكد أن لهذا الأمر نهايته.

فيكتوريا : لاتتركني.

دييجو : ســـوف ينتهي ذلك الأمر. إنني في ريعان الشباب، وأحبك حبا لا حد له، وكم أستبشع الموت.

فيكتوريا : (تندفع نحوه)



	أما أنا فإني حية أرزق.
دييجو	(يتراجع) يا للخجل يافيكتوريا، يا للخجل !
فيكتوريا	الخجل، لماذا الخجل؟
دييجو	يبدو لي أنني خائف !
	(تسمع تأوهات يجري دييجو نحوها. الجميع يسير على نغمة الكوبلا)
الجوقة	من المخطئ ومن المصيب ؟
	فكر.
	إن كل شيء في هذا العالم كذب.
	ليس ثمة حق سوى الموت.
	(كشاف يوجه إلى الكنيسة وقصر الحاكم، ترنيمات وصلوات في الكنيسة وفي القصر. القاضي الأول يوجه كلامه للشعب)
القاضي الأول	أمر من الحاكم: ابتداء من هذا اليوم، وعلى سبيل التكفير عن هذه المحنة العامة، ولتجنب التعرض لخطر العدوى فإن كل تجمع عام محظور، وكل الملاهي ممنوعة وكذلك...
	(امرأة تبدأ في العويل وسط الجموع)
	هناك. هناك. يخفون أحد الموتى، لا ينبغي تركه، ستعم منه العفونة، عار على الناس، يجب مواراته التراب.
	(هرج ومرج، يأتي رجلان ويجران المرأة)
القاضي	وهكذا فإن الحاكم في وسعه أن يطمئن الأهالي على سير الوباء الذي حط على المدينة بلا توقع، إذ يكفي أن تهب الريح من البحر حتى ينقشع الطاعون بعون الله.



كلامه تقطعه الدقتان الهائلتان المكتومتان، في إثرهما دقتان أخريان، بينما يشتد قرع جرس الجنازات سرعة ورنينا وتتعاقب الصلوات في الكنيسة، ثم يسيطر على الجموع، بلا منافس، صمت مرتعب يدخل في أثنائه شخصان غريبان، رجل وامرأة فيلاحقهما الجميع بنظراتهم. الرجل ممتلئ الجسم عاري الرأس ويرتدي ثوبا من قبيل الأزياء الرسمية، وقد رشق صدره بوسام، وترتدي المرأة كذلك زيا رسميا، له ياقة وكمَّان في لون أبيض، في يدها دفتر صغير يتقدمان ويقفان تحت قصر الحاكم ويحييان)

الحاكم	:	ماذا تريدان مني أيها الغريبان ؟
الرجل	:	(بلهجة مهذبة رسمية) مكانك.
الجميع	:	ماذا ؟ ماذا يقول ؟
الحاكم	:	لقد أسأت اختيار هذا الوقت لطلبك، وهذه الوقاحة قد تكلفك غاليا، ولكن لعلنا أسأنا الفهم، من أنت؟
الرجل	:	إن لي ألف اسم.
القاضي الأول	:	أنا لا أعرف من أنت أيها الغريب، ولكن أعرف أين ينتهي بك المطاف.
الرجل	:	(بهدوء شديد) إنك تثيرني. ما رأيك أيتها الصديقة العزيزة. أينبغي إذن أن أقول لهم من أنا ؟
السكرتيرة	:	جرت العادة ألا نفعل ذلك إلا بعد مزيد من التحشم والتلطف.
الرجل	:	ولكن هؤلاء السادة لا يتراخى لهم إلحاح.
السكرتيرة	:	ربما كانت لهم مبرراتهم. وعلى كل فنحن في زيارة، ولا بد من الخضوع لعادات هذه الأماكن.



الرجل : إني أفهمك، ولكن لا يشيع ذلك الاضطراب في هذه العقول الطيبة ؟

السكرتيرة : اضطرابهم أفضل من استغفالهم بلا تأدب.

الرجل : لك قــدرة على الإقنــاع، ولكني مازلت أتحــرج من بعض المعاذير.

السكرتيرة : واحدة من اثنين.

الرجل : إني مصغ إليك.

السكرتيرة تعلن اســمك أو لا تعلنه. فإذا أعلنته فسـيعرفونه، وإذا لم تعلنه فلن يغيب عنهم علمهم به.

الرجل : لقد أوضحت لي الأمر تمام الوضوح.

الحاكم : هذا كاف على كل حال، غير أني للمرة الأخيرة أفرض عليك قبل اتخاذ التدابير اللازمة أن تعلن اسمك ومقصدك.

(بلهجة مازالت غير متكلفة)

الرجل : أنا الطاعون... وأنت؟

الحاكم : الطاعون ؟

الرجل : نعم. وأنا في حاجة إلى منصبك. صدقني، إني آسف لذلك ولكن أمامي أعمالا كثيرة لا بد لي من إنجازها، ســأمنحك مهلة ساعتين مثلا، أيكفيك هذا لنقل السلطة إلي؟

الحاكم : لقد شــطت هذه المرة وجاوزت كل الحدود. سوف تعاقب على هذه الوقاحة. أيها الحراس.

الرجل : انتظــر. إني لا أريد أن أحمل إنســانا على فعل رغم أنفه، ومبدئــي أن أتجنب كل عيب، وأنت على كل حال لا تعرفني ولكنــي أود حقــا أن تتخلــى لي عن منصبــك من دون أن تضطرني إلى أن آتيك ببرهان على قدراتي، أفلا تستطيع تصديقي اعتمادا على كلامي وحده ؟

الحاكم : ليـس لدي وقت أضيعـه، وهذه المهزلة قـد طالت كثيرا. اقبضوا على هذا الرجل.

الرجل : لاخيار لي إذن، لا بد من الخضوع لما أكره، وأنا أضيق بهذا الأمر كله ضيقا شديدا. هل لك أيتها الصديقة العزيزة أن تشرعي في الشطب ؟

(يمد ذراعه إلى أحد الحراس. السكرتيرة تتعمد أن يتجلى شـطبها لشـيء مكتوب فـي الدفتر. وقع الدقـة المكتوبة يملأ الأسـماع، يسـقط الحارس على الأرض، تتقدم إليه السكرتيرة وتفحصه)

السكرتيرة : انتظـم تطبيق القواعد يـا صاحب الفخامـة، فالعلاقات الثلاث ها هي ذي بادية عليه (للجميع بتلطف) معنى علامة واحدة أنها تثير الشك لا اليقين، ومعنى علامتين أن المرض قد أصابكم، ومعنى العلامات الثلاث أن الشـطب قد تقرر وصدر به الحكم. فالأمر كما ترون بسيط غاية البساطة.

الرجل : آه. لقد نسيت أن أقدم لكم سكرتيرتي. وأنتم على كل حال تعرفـون من هـي، ولكن لا بأس فإن المرء يصادف أناسـا عديدين فلا يذكرهم جميعا.

السكرتيرة : لهم عذرهم ولا ضير، فالناس كلهم لا يغيب عنهم طويلا أن يعرفوا من أنا.

الرجل : إن لها طبعا رضيا كما ترون، فهي مرحة فنوع نظيفة باطنا وظاهرا...

السكرتيرة : ليس لي فضل في ذلك، فالعمل أسهل وسط الزهور النضرة والابتسامات.

الرجل : نعـم اعتقادك هـذا، ولكن لنعد إلـى موضوعنا. (موجها كلامه إلى الحاكم) ألم تر أنني أمددتك ببرهان كاف على أننـي جـاد في قولي، ما لـك لا تنطق بكلمـة ؟ نعم. قد



أرهبتك بطبيعة الحال، ولكن ثق بأن هذا يحدث على غير هواي، كنت أفضل عقد تسوية ودية وتعاهد نقيمه على الثقة المتبادلة، يكفي لضمان ذلك أن تقول نعم وأقول نعم، واتفاق يرضي الشرف على نحو ما، وعلى كلٍّ لم يفلت بعد من قدرتك اتخاذ قرار سديد. أترى أن مهلة ساعتين كافية لك ؟

(الحاكم يهز رأسه علامة النفي)

الرجل (يستدير نحو السكرتيرة) أليس هذا مما يؤسف له؟

السكرتيرة : (تهز رأسها) إنه رجل عنيد. يا للعوائق.

الرجل : (للحاكم). مازلت مع ذلك متشبثا بنيل رضاك، فلا أريد أن أفعل شيئا من دون موافقتك، وإلا كنت مناقضا لمبادئي، وستمضي سكرتيرتي إذن في الشطب بالقدر الذي يفضي إلى الفوز منك بموافقة عن طيب خاطر على إصلاح حين أتقدم باقتراحه. هل أنت مستعدة أيتها الصديقة العزيزة؟

السكرتيرة : لن أتريث إلا مقدار فراغي من قلمي الذي انكسر سنُّه، ثم سرعان ما تسير الأمور على أحسن حال.

الرجل : (يتنهد) لولا تفاؤلك لأصبحت مهنتي مؤلمة جدا.

السكرتيرة : (تبري قلمها) إن السكرتيرة المثالية على يقين من أن كل خلل لا يستعصي علاجه وتسويته، ما من خطأ في حساب إلا هان إصلاحه، ما من موعد لم يتحقق إلا تيسر تعويضه، ولا مصيبة ليس لها جانب طيب، حتى الحروب ذاتها هي في بعض وجوهها نعمة، بل إن المدافن تصبح مجالا لعقد صفقات مربحة حين يسقط كل عشر سنوات امتياز استيلاء كل أسرة على قبر خاص بها على الدوام.

الرجل : إن كلامك من ذهب.. هل أصبح لقلمك سن؟



السكرتيرة: نعم إن له سنا ونستطيع أن نبدأ .

الرجل: هيا بنا .

(يشـــير إلى نادا الذي تقدم، ولكــن تنفجر له قهقهة عالية شـأن السكارى).

السكرتيرة: هل أســتطيع أن ألفت نظرك إلى أن هـذا مـن النوع الـذي لا يعتقد في شيء. وأن هذا النوع مفيد لنا للغاية ؟

الرجل: هذا حق. لنأخذ إذن أحد القضاة.

(يسود الذعر لدى القضاة)

الحاكم: قف.

السكرتيرة: علامة طيبة ياصاحب الفخامة.

الرجل: أي خدمة أؤديها لك أيها الحاكم ؟

(في عجلة)

الحاكم: إذا تركت لك مكاني أنا وأهلي والقضاة فهل تسلم حياتنا؟

الرجل: بطبيعة الحال، وتلك هي العادة المتبعة.

(يتشاور الحاكم مع القضاة ثم يستدير نحو الشعب)

الحاكم: يا شـــعب قادش، إني لعلى يقين من أنكم أدركتم الآن أن كل شـــيء قد تغير، ولمصلحتكم نفسها ربما كان من الأوفق أن أغادر هذه المدينة وأتركها للســـلطة الجديدة التي تكتشـــف فيها للتو، والاتفاق الذي أبرمته معها سيجنبنا ما هو أسوأ بلا شـــك. وهكذا فإنكـــم على يقين مـــن الاحتفاظ خارج جـــدران المدينة بحكومة قد تصبح لكـــم يوما ذات جدوى. هـــل أنا في حاجة إلى أن أقول لكـــم إنني إذ أحدثكم هذا الحديث لا أخضع للقلق على سلامتي الشخصية ولكن...



الرجل : عفوا لمقاطعتي لك. ولكن يسرني لو أنك أوضحت علنا أنك توافق بمحض إرادتك على هذه الإجراءات المفيدة وأن الأمر يتعلق بطبيعة الحال باتفاق حر.

(الحاكم تتجه نظرته إلى الشعب والسكرتيرة ترفع القلم إلى فمها)

الحاكم : لا جرم أنني أبرم هذا الاتفاق الجديد في حرية تامة. (يتمتم قليلا ويتراجع ويولي الأدبار.. تبدأ موجة الرحيل من المدينة)

الرجل : (للقاضي الأول) من فضلك لا ترحل هكذا بسرعة، فإني في حاجة إلى رجل يتمتع بثقة الشعب وأستطيع به إعلان رغباتي.

(القاضي الأول يتردد)

ستقبل بطبيعة الحال (للسكرتيرة) أيتها الصديقة العزيزة.

القاضي الأول : طبعا طبعا، هذا شرف كبير.

الرجل : رائع. أما والحال كذلك فهيا ياصديقتي العزيزة، أبلغي القاضي بما ينبغي أن يعلمه هؤلاء الناس الطيبون من قراراتنا، لكي يستهلوا حياتهم وفق التنظيم الجديد.

السكرتيرة : أمر ارتآه وأعلنه القاضي الأول ومستشاروه.

القاضي الأول : ولكني لم أصدر أمرا بعد.

السكرتيرة : أعفيناك من تجشم هذا العناء، وإخالك تحمد حسن حظك. إن جهازنا التنفيذي يتحمل عبء تحرير نصوص الأوامر التي يكون لك شرف التوقيع عليها.

القاضي الأول : بلا ريب، ولكن...



السكرتيرة : هـــذا الأمر إذن هو بمنزلـــة لائحة تصــدر تحقيقاً لإرادة عاهلنا المحبوب، وتتضمن أســـس التنظيم وبذل الإسعاف عن مـــروءة لمن تصيبـــه العدوى، وترســـم القواعد وتحدد الأشخاص - مثل الملاحظين والحراس والمتكفلين بالتنفيذ واللحاديـــن ممن يطلب إليهم أداء اليمين إنهم ينجزون بكل دقة ما يصدر إليهم من تعليمات.

القاضي الأول : لم كل هذه الرطانة المبهمة من فضلك ؟

السكرتيرة : لكي يتعود الناس بعض الغموض، فكلما شـــق فهمهم سهل انقيادهـــم، وبعد فهـــذه الأوامر التي ينبغـــي لك أن تتادي بها في المدينة بصوت جهير واحدا بعد آخر، لكي يتيســـر هضمها حتى علـــى المحرومين من ســـرعة الفهم، وهؤلاء هم رســـلنا، وجوههم السمحة تعين على تثبيت كلامهم في الذاكرة.

(يتقدم الرسل)

الشعب : لقد رحل الحاكم، لقد رحل الحاكم.

نادا : هذا حقه أيها الشعب، هذا حقه. إن الدولة هي هو، ويجب صيانة الدولة.

الشعب : الدولة كانت هو، أما الآن فهو لم يعد شيئا، ومادام قد رحل فالطاعون هو الدولة.

نادا : وما الذي يعنيكم من هذا الفرق، فســـواء أكان الطاعون أم الحاكم فالدولة لاتزال هي هي.

(الشعب يتحرك باحثا عن مخارج فيما يبدو)

الرسول الأول : كل منزل مصاب ينبغي أن يميزه رســـم نجمة سوداء وسط بابه، محورها طوله قدم، وتزدان بهذه العبارة «نحن جميعا إخـــوة»، وينبغـــي أن تظل النجمة مرســـومة حتى يعاد فتح



المنـــزل وإلا تعرض المخالـــف لعقوبة صارمـــة طبقا لنص القانون. (ينسحب)

صوت — أي قانون ؟

صوت آخر — القانون الجديد بكل تأكيد.

الجوقة — كان ســـادتنا يقولون إنهم ســـيحموننا، ومـــع ذلك فها نحن قد تُركنا لأنفســـنا بلا ســـند، إن ضبابا قبيحا بدا يتكاثف في أركان المدينة الأربعة ويبدد شـــيئا فشـــيئا شذا الفواكه والورد، ويذهب ببهجة الموســـم ويخنق مرح الصيف. إيه يا قادش، يامدينة البحر، بالأمس فقط ومن فوق المضيق أتت رياح الصحراء محملـــة بمزيد من الأبخرة الكثيفة لمرورها على الحدائق الأفريقية، أتت لتصيب فتياتنا بالخدر، ولكن الرياح قد توقفت وهي وحدها التي تستطيع تطهير المدينة. فكان ســـادتنا يقولون إن شـــيئا لن يحدث ابدا. فإذا بهذا الرجل الآخر هو الذي على حق، وإن شيئا ما يحدث ونحن واقعـــون فيه، وعلينا أن نولّي الأدبار ونهرب بلا تأخير قبل أن تغلق الأبواب على المحنة التي حاقت بنا.

الرسول الثاني — إن جميـــع المـــواد التموينيـــة الأساســـية ســـتكون من الآن فصاعـــدا تحت تصرف الأهالي، ويعني ذلك أنها ســـتوزع بأنصبة متســـاوية وضئيلة على جميع الذين سوف يثبتون، في إخلاص، انتسابهم إلى المجتمع الجديد.

(يغلق الباب الأول)

الرسول الثالث — جميع الأنوار يجب أن تطفأ في الســـاعة التاســـعة مساء، ولن يســـمح لأي فرد بالبقاء في مكان عام، أو التجوال في شـــوارع المدينة من دون تذكرة مرور صحيحة، لن تستخرج إلا فـــي أحوال نادرة للغاية، ووفق مـــزاج مصدرها وحده. وكل من يخالف هذه الأحكام سيحل بـه عقاب صارم طبقا لنص القانون.

(أصوات بنبرة تتعالى حدتها)

– سوف يغلقون الأبواب.

– لقد أغلقت الأبواب.

– كلا إنها لم تغلق جميعها.

الجوقة آه. هيا بنا نركضِ إلى الأبواب التي مازالت مفتوحة. ونحن أبناء البحر، وعلينا أن نصل إلى هناك. هناك إلى البلد الذي لا جدران ولا أبواب له، إلى الشواطئ العذراء، حيث الرمال لها طراوة الشفاه، والنظر يمتد بعيدا حتى يدركه الإعياء. لنركض ونركض حتى نلاقي الرياح. إلى البحر، البحر آخر المكان، البحر الطليق، المياه التي تغسل، والرياح التي تحرر.

اصوات إلى البحر، إلى البحر.

(حركة خروج مندفعة)

الرسول الرابع محظور حظرا شديدا تقديم المساعدة إلى أي شخص مصاب بالمرض، اللهم إلا بإبلاغ السلطات عنه وهي التي تتولاه، وتبليغ أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض واجب بصفة خاصة، ويكافأ المُبلغ بالحصول على نصيب مضاعف من المواد الغذائية يسمى بالنصيب الوطني.

(الباب الثاني يغلق)

الجوقة إلى البحر، إلى البحر، البحر سوف ينقذنا. هيهات أن تضيره الأمراض والحروب، فكم من حكومة شهدها وطواها، لا شيء يصدر عنه سوى حمرة الشفق وخضرة الغسق وخرير أمواجه الأبدي من المساء إلى الصباح طوال ليال مرصعة بحشد من النجوم. إيه، لك أنت وحدة وطلاء وتعميد بالملح. يا للوقوف فردا أمام البحر، تلفني الرياح،



وفي مواجهة الشمس أخيرا، هذا هو الخلاص من هذه المدن المغلقة كالقبور، ومن وجوه بشر أوصدها الرعب من لي بمن ينجيني من الإنسان وشروره المرعبة، كنت سعيدا في قمة الموسم، قد خلى بيني وبين الثمار، إذ الطبيعة معتدلة والصيف ودود. أحببت العالم كله يضمني أنا وإسبانيا، ولكن ما لي لم أعد أسمع خرير الأمواج في بحري. لقد حل محله زعيق ورعب وشتم وسب ونذالة وجبن، ها هم أولاء إخوتي قد أثكلهم العرق والهواجس وسينوء كاهلهم وشيكا، من ذا الذي يرد لي مسابح النسيان ومياه الهدوء وسط بحر سائلة دروبه، منطمسة آثار عبوره، فهيا إلى البحر من قبل أن توصد الأبواب.

صوت ابتعد بسرعة. حذار من أن تلمس هذا الذي كان قريبا من الميت.

صوت لقد ظهرت عليه العلامة.

صوت تراجعوا تراجعوا...

(يضربونه. الباب الثالث يغلق)

صوت ربنا يا له من رب عظيم جبار.

صوت أسرع. خذ ما نحتاج إليه، الحشية وقفص العصافير لا تنس. مقود الكلب وآنية أوراق النعناع الطازج كذلك، فسوف نمضغها حتى نصل إلى البحر.

صوت أمسكوا اللص. أمسكوا اللص. لقد أخذ الغطاء المطرز، غطاء عرسي.

(الناس يتمتعون ويمسكون به ويضربونه. الباب الرابع يغلق)

صوت أضف هذا من فضلك، أضف طعامنا.



صوت : لم أتزود بأي شيء للطريق. أعطني رغيفا يا أخي وسأعطيك قيثارتي المحلاة بالصدف.

صوت : إن هذا الرغيف لأبنائي لا لهؤلاء الذين يلقبون أنفسهم بإخوتي. القرابة درجات.

صوت : إليَّ برغيف. إني أعطي ثروتي كلها مقابل رغيف.

(الباب الخامس يغلق)

الجوقة : انصرفوا بسرعة، ليس ثمة إلا باب واحد مازال مفتوحا. إن الوباء يسير أسرع منا، إنه يكره البحر ولا يريد أن نعود إليه. إن الليالي هادئة والنجوم تمرق عبر السمت. ماذا عسى أن يفعل الطاعون هنا. إنه يريد أن يبقينا تحت جناحه، إنه يحبنا وفق أسلوبه ويريد أن نكون سعداء حسب فهمه هو للسعادة، لا حسب فهمنا نحن لها، هي عنده متع تفرض جبرا، وحياة دعتها في بردها وهناء مؤبد بلا غد. إن كل شيء ثابت محدد، ولم نعد نشعر فوق شفاهنا بطراوة الرياح الخوالي.

صوت : أيها القسيس لاتتركني، إني من مساكينك.

(القسيس يهرب)

الجوقة : يا للتعاسة ! يا للتعاسة ! بقينا وحدنا نحن والطاعون، لقد انغلق آخر باب ولم نعد نسمع شيئا. البحر من بعد أصبح نائيا، هيهات أن يطال. نحن الآن وسط الآلام، وعلينا أن ندور وندور في هذه المدينة العتيقة التي حيل بينها وبين أشجارها وشطآنها، وأوصدت من حولها أبواب عالية ملساء، وعلاها زعيق جموع متزاحمة صاخبة، ها هي ذي قادش قدأصبحت أخيرا حلبة مصارعة يتقاسمها من الألوان الأسود والأحمر حيث تتم شعائر قتل الضحايا. أيها الإخوة، إن تلك المحنة أكبر من الذنب الذي اقترفناه،



ونحن لا نستحق هذا السجن. إن قلبنا لم يكن طاهرا ولكنا كنا نحب الخليقـــة وفصول الصيف منها، وكان ذلك خليقا بأن يقســـم لنا النجاة. إن الرياح معطلة والســـماء خاوية. سوف نلتزم بالصمت مدة طويلة، ولكن للمرة الأخيرة وقبل أن تغلق أفواهنا تحت كمّامات الرعب ســـوف نطلق صرخة في الصحراء.

(تأوهـــات وصمـــت، ولا يتبقى من الأوركســـترا إلا صوت أجراســـه. أزيز المذنب يعود في هـــدوء. في قصر الحاكم يظهر من جديد الطاعون والســـكرتيرة. السكرتيرة تتقدم وهي تشطب اســـما عند كل خطوة وحركاتها تتعاقب وفق دقـــات من الطبول. نادا يضحك ســـاخرا، وتمر أول عربة لنقـــل الموتى ويســـمع لعجلاتها صليـــل. الطاعون ينتصب في قمة الديكور ويأتي بإشـــارة. كل شيء يتوقف، الحركة والضجيج)

(الطاعون يتكلم)

الطاعون : لا ســـيادة هنا لأحـــد غيري، هذا أمر واقـــع فهو إذن حق، ولكنه حق لا يقبل المناقشـــة، وعليكم أن تروضوا أنفســـكم على التكيف وفقه. على كل حال حذار من أن يخطئ ظنكم، قلت إنني رب الســـيادة هنا، وقد يكون من الأصح أن أقول إنني رب الفعل والتنفيذ. أما أنتم أيها الإســـبان فلكم مزاج تشوبه مسحة من الرومانســـية. فالصورة التي ستخلعونها عليَّ هي صورة ملك أســـود القلب أو صورة حشرة ضخمة، لأنكـــم تهيمـــون بالمواقف التـــي تثير الشـــجن، وهذه هي شهرتكم. نعم، إني لم أتخذ صولجانا بل اتخذت هيئة أدنى الضباط رتبة، هذه هي الوسيلة التي ألجأ إليها لإغاظتكم، إذ من الخير بقاؤكم في غيظ، أنتم الآن لاتعرفون شيئا، كل ما ســـيرد عليم جديد ينبغي تعلمه لأول مرة، ستعلمون أن



أظفار ملككم سوداء، وأن زيّه الرسمي محكم وأنه لا يتربع على عرش، بل يشـــغل مقرا للقيـــادة، وأن قصر الملك ثكنة وخيمة صيّده ساحة قضاء. لقد أعلنت حالة الطوارئ وبدأ تنفيذ الأحكام العرفية.

من أجل هذا أســـترعي انتباهكـــم لما أقوله الآن. إنني حين أفد يرحل الشجن، فالشجن محظور هو وهدهدة تخيلات أخـــرى مماثلـــة، كالاجترار الســـخيف للوعة علـــى الهناء وارتضاء العشـــاق بأن تنطق وجوههم بالغباء والاستسلام في أنانية للاســـتغراق في تأمل مشـــاهد الطبيعة، وكذلك نشـــوة الســـخرية الجارحة. بـــدلا من هذا كلـــه أتيت لكم بالنظام الجديد وسوف يضايقكم أول الأمر ولكن ستتبينون أن نظاما وثيقا خير من شـــجن مرذول. ولكي أضرب لكم مثلا على هذه الحكمة البديعة ســـأبدأ بفصل الرجال عن النساء، وسيكون لهذا الفصل قوة القانون.

(يبدأ الحرس في فصل الرجال عن النساء تنفيذا لأمره)

انقضى عهد الهزل وآن اليوم أوان الجد، أظن أنكم أدركتم ما أعنيه، ابتداء من الليلة سوف تتعلمون كيف تموتون وفق نظـــام ثابت. كنتم تموتون حتى اليوم وفق عرف إســـبانيا، كيفما اتفق أو على ســـبيل التجربة كما يقال، كنتم تموتون لأن طقســـا حارا أعقبه طقس بـــارد، لأن بغالكم زلت، لأن سلسلة جبال البرانس بدت ساخرة في غلالتها الزرقاء لأن نهـــر الوادي الكبير دأب في الربيـــع على اقتناص الوحدة، لأن ثمـــة بلهـــاء يعمدون إلى القتل طلبا لكســـب، أو دفاعا عن الشـــرف، على حين أن القتل يصبح أكثر تأنقا إذا كان لمجرد السرور بسداد منطق يقتضيه. نعم كنتم لا تحسنون لقاء المـــوت، فيكم من يموت هنا، ومـــن يموت هناك، هذا في فراشـــه وذاك فـــي حلبة المصارعة، نعـــم كان هذا هو الطيش بعينه، من حســـن الحظ أن هذه الفوضى ستخضع



للانضباط، فلم يعد ثمة سوى ميتة واحدة للجميع، ووفق ترتيب مسجل في قائمة. سيكون المرجع إلى بطاقة معدة لكل واحد منكم، ولن يكون المرجع إلى نزوة طارئة.

لقد أصبح القدر منذ الآن حكيما وجلس إلى مكتبه. ستندرجون في قوائم الإحصاء الشامل، وهكذا، يكون لوجودكم نفع ما، ذلك أنه قد فاتني أن أذكر لكم أنكم ستموتون، فهذا أمر مفروغ منه. ولكنكم ستموتون بعد موتكم، أو حتى قبل موتكم. فهذا أدعى إلى النظافة وتدبير يقضي به النظام. ولتكن إسبانيا هي همنا الأول. الشرط إذن في ميتة طيبة هو وقوفكم في الصف، فإذا أطعتم نلتم رضاي، ولكن حذار من الأفكار الهوجاء ومن غليان النفوس كما تقولون، من ضروب من الحمى الخفيفة التي تتفجر منها ثورات عنيفة، لقد ألغيت الرخص كلها وأحللت المنطق الصارم محلها، فأنا أكره الإخلال بالمساواة وحكم العقل. سيسودكم التعقل إذن ابتداء من اليوم، ومعنى هذا أنكم ترضون برسم علامات عليكم إذا رسمت في أعلى الفخذ كان عليكم أن تحملوا تحت الإبط علنا شكل نجمة ترمز إلى الدمل، وتدل على أنكم في عداد المرشحين للإصابة بالعدوى القاتلة. أما الآخرون ممن يحملون أنفسهم على الاعتقاد أن الأمر لا يعنيهم فليقفوا واحدا وراء الآخر خلف صف الناس المنتظرين فتح أبواب حلبات المصارعة يوم الأحد، وينبغي عليهم الابتعاد عنكم أنتم الذين علقت بهم الشبهة، ولا تشب قلوبكم مرارة لنفورهم منكم، فهذا أمر يخصهم ولا يخصكم، فهم أيضا مدرجون في القائمة، ولن يفلت مني إنسان، فالجميع في اعتباري قد علقت بهم الشبهة، وهذه هي أوفق بداية.

هذا لا يمنع الضعف أمام العواطف، فأنا أحب الطيور وبشائر زهور البنفسج وأفواه العذارى الرطبة، وأغتنم هذه



المتع بين الحين والحين، ففيها استرواح للنفس. لأجل مرجو أنني رجل مثالي فإن قلبي... ولكن حسبي فإني أشعر بأنني تملك إلى الرقة واللين، ولا أريد أن أتمادى في هذا الميل. خلاصة القول أنني جئتكم بالصمت والنظام والعدالة المطلقة، ولا أسألكم شكرا على ذلك فإن الذي أفعله لكم تقتضى به طبيعة الأمور.

ولكني أصر على ضرورة مساندتي بمساهمتكم الفعالة. إن عهد حكومتي قد بدأ.

(سـتار)

❝ ❝ ❝

القسم الثاني



(ميدان في قادش، من ناحية الحديقة مقر حارس المقبرة، من ناحيـــة الرحبة رصيف البحر، بالقـــرب منه يقوم بيت القاضي.

لدى فتح الستار يعمد اللحادون، وهم في ثياب المسجونين، إلى جمع بعض الجثث. يســـمع صليل عربة نقل الموتى من خلـــف الكواليس، ثم تدخل العربة وتقف وســـط المشـــهد، ويســـرع المساجين في تعبئتها، ثم تسير نحو مقر الحارس، ومـــا تكاد تقف أمـــام المقبرة حتى ينبعث صوت موســـيقى عســـكرية، وينفتح شق من بوابة مقر حارس المقبرة فتدخل جموع الناس منه. مقر الحارس يشـــبه الجانب الذي تعلوه ســـقيفة في فناء مدرســـة، الســـكرتيرة تتربع على منصة عالية، من تحتها صف مـــن المناضد كالتي توزع من فوقها بطاقـــات التموين. ومن وراء منضدة يجلس القاضي الأول بشاربه الأشـــيب. وقد أحاط به نفر من الموظفين. يرتفع رنين الموسيقى، وفي الناحية الأخرى يدفع الحراس الجموع أمامهم ويســـوقونهم إلى مقدمة المشهد ويخرجون بهم في مقر حارس المقبرة، وقد فصلوا الرجال عن النســـاء. يضاء وســـط المشـــهد، ويرى الطاعون في شـــرفة قصره يصدر أوامـــره إلى عمال مختفـــين، لا يتبين منهم ســـوى صوت هرجلتهم من حول المشهد)

الطاعون : يـــا هؤلاء، هيا أســـرعوا، كل عمل يســـير ببـــطء في هذه المدينة. هذا الشـــعب لا حق لـــه في العمل، إذ يحب الفراغ والتبطـــل وهذا أمر واضح. أما أنا فلا أتصور عقد الأذرع على الصدور إلا في الثكنات وطوابير الانتظار. وهذا النوع من الفراغ لا بأس به، إذ يسترخي عليه القلب والساقان، إنه فراغ لا تتأتى الاســـتعانة به، هيا، ولنتم تشييد البرج الذي يلزمني، فإن المراقبة لم تنتظم بعد، أقيموا من حول المدينة ســـياجا من قوائم حديدية لها رؤوس مدببة شـــائكة. أما



ربيعي أنا فهو براعم ورد من الحديد، أوقدوا الأفران التي أنذرتم بها، فنيرانها هي من معالم أفراحنا. أيها الحراس ارسموا نجمتنا على أبواب المنازل التي ستشغل بالي، أما أنت أيتها الصديقة العزيزة فعليك البدء في إعداد قوائمنا وتهيئة شهادات البقاء في قيد الحياة.

(يخرج الطاعون من الجانب الآخر)

الصياد: (وهو الناطق بلسان المحيطين به من زمرته) شهادة بقاء في قيد الحياة، ما فائدتها ؟

السكرتيرة: ما فائدتها، كيف تستطيع لكي تعيش حياتك أن تستغني عن شهادة ببقائك في قيد الحياة ؟

الصياد: حتى الآن كنا نعيش على أحسن حال من دون شهادة.

السكرتيرة: ذلك لأنكم لم تكونوا محكومين، أما الآن فقد أصبحتم كذلك. والمبدأ الأعلى لحكومتنا هو بالذات أن الموتى في حاجة دائمة إلى شهادة. قد يتأتى لك الاستغناء عن الخبز وعن النساء، ولكن لا استغناء لك عن شهادة قانونية تتضمن، إثبات أي أمر من الأمور.

الصياد: منذ ثلاثة أجيال وأسرتي تلقي الشباك، والعمل يسير على خير ما يرام من دون ورقة واحدة مكتوبة، وأقسم لك على ذلك.

صوت: ونحن جزارون أبا عن جد، ولكننا نذبح الخراف لا نستعين بأي شهادة.

السكرتيرة: لقد كنتم تعيشون في فوضى مطبقة، هذا كل ما في الأمر، ولتلاحظوا أننا لا اعتراض لنا على المجازر بل نرحب بها، وكنا أدخلنا عليها نظاما محكما للمحاسبات وهذه هي ناحية تفوقنا. أما عن الصيد الوفير برمي الشباك فسترون أن لنا عليه قدرة رائعة. سيدي القاضي الأول. هل لديك الاستمارات؟



القاضي الأول : ها هي ذي.

السكرتيرة : أيها الحراس، تفضلوا بمساعدة السيد على التقدم.

(يساعدون الصياد على التقدم)

القاضي الأول : (يقرأ)

الاسم ولقب الأسرة والصفة.

السكرتيرة : لتعبر البيانات التي تعد من قبيل تحصيل الحاصل، فإن السيد سيملأ المسافة البيضاء أمام هذه الأسئلة.

القاضي الأول سيرة حياتك الذاتية...

الصياد : أنا لا أفهم.

السكرتيرة : ينبغي أن تبين هنا الأحداث المهمة في حياتك. تلك وسيلة التعرف عليك.

الصياد : إن حياتي ملك لي، وهذه أمور خاصة لا تهم أحدا.

السكرتيرة : أمور خاصة، تلك كلمات لا معنىٍ لها عندنا، الأمر يتعلق طبعا بحياتك العامة وهي على كل الحياة الوحيدة المصرح لك بها. سيدي القاضي انتقل إلى التفاصيل.

القاضي الأول : متزوج ؟

الصياد : سنة ١٩٣١.

القاضي الأول : أسباب القرابة ؟

الصياد : أسباب ؟ إن دمي يفور ويكاد...

السكرتيرة : منصوص على هذا السؤال في القائمة، وهذه وسيلة ناجحة لكي يصبح من العلم الذي يملكه الجميع، فكل ما ينبغي ألا نعده منذ الآن علما مملوكا لصاحبه وحده.

الصياد : لقد تزوجت لأن هذا هو ما يفعله المرء حين يكون رجلا.

القاضي الأول : مطلق ؟

الصياد : كلا، أرمل.



القاضي الأول : تزوجت ثانية ؟

الصياد : كلا.

السكرتيرة : لماذا ؟

الصياد : (مولولا)

كنت أحب زوجتي.

السكرتيرة : أمر غريب. لماذا؟

الصياد : أفي قدرة كل إنسان أن يدلي بسبب لكل تصرف له؟

السكرتيرة : نعم، في مجتمع حسن التنظيم.

القاضي الأول : سوابق ؟

الصياد : ماذا أيضا ؟

السكرتيرة : هل حكم عليك للسطو أو للحنث بالقسم أو لهتك عرض؟

الصياد : كلا.

السكرتيرة : رجل شـــريف، وكان هذا ظني بك. سيدي القاضي الأول. أضف عبارة: يراقب.

القاضي الأول : مشاعرك الوطنية.

الصياد : لقد كنت دائما أخدم مواطني، ولم أترك قط فقيرا يمضي من دون أن أقدم له سمكة لا بأس بها.

السكرتيرة : هذه الطريقة في الرد ليست مصرحا بها.

القاضي الأول : آه هذا السؤال يمكنني شـــرحه، فإن المشاعر الوطنية هي كما تعلم طبعا من اختصاص منصبي. الغرض من السؤال أن نعـــرف هل أنت أيها الرجل من هـــؤلاء الذين يحترمون النظام القائم.

الصياد : نعم حين يكون عادلا ومعقولا.

السكرتيرة : أصبحت موضع شـــك، أكتب أن المشاعر الوطنية مشكوك فيها واقرأ السؤال الأخير.



القاضي الأول	:	(وهو يفك الخط بصعوبة) أسباب وجودك ؟
الصيادا	:	أمي عاهرة لو كنت أفهم شيئا في هذه اللغة.
السكرتيرة	:	معنى هذا أن عليك أن تقدم الأسباب التي تجعلك في قيد الحياة.
الصيادا	:	الأسباب. أي أسباب تريدين أن أجدها ؟
السكرتيرة	:	أفرأيـت. أن الشـك كان علـى حق ؟ خذ بالك ياسـيدي القاضي. فـإن الموقع أدناه يعترف بـأن وجوده لامبرر له، وهذا سـيطلق يدنا بحرية أكثر حين يجيء دوره، وأنت أيها الموقع أدناه يحسن بك أن تدرك أن شهادة الوجود في قيد الحياة التي ستسلم مؤقتة ولها نهاية.
الصيادا	:	مؤقتـة أو غير مؤقتة، أعطنـي إياها حتى أعود أخيرا إلى بيتي حيث ينتظرونني.
السكرتيرة	:	بـكل تأكيد. ولكن قبـل ذلك يجب تقديم شـهادة صحية تصرف لك بعد بعض الإجراءات الشـكلية في الدور الأول إدارة الشـؤون الجاريـة، مكتب حالات الانتظار والقسـم المساعد.
		(يخـرج. تصل عربة الموتى في هذه الأثناء إلى باب المقبرة ويؤخذ في تفريغها، ولكن نادا يخرج من العربة مولولا وهو مخمور)
نادا	:	ولكن بما أني أقول لكم إنني لست ميتا.
		(يحاولون إعادته إلى العربة، يهرب ويدخل إلى مقر حارس المقبرة)
نادا	:	مـاذا دهاكـم. ولو كنت قد مـت لما خفي موتـي. (يلحظ السكرتيرة ويوجه إليها كلامه) آه عفوا.
السكرتيرة	:	لا عليك. اقترب.

نادا : لقد حملوني في عربة الموتى. وكل ما في الأمر أنني أفرطت في الشرب، قصدت به المحو.

السكرتيرة : محو ماذا ؟

نادا : محو كل شيء يا فتاتي، فكلما عم المحو حسن الحال، فإذا تم محو كل شيء فتلك هي الجنة، ولا أبالي بمحو العشاق، فإني أمقتهم، وحين يسيرون أمامي أبصق عليهم، على ظهورهم بطبيعة الحال لأن فيهم من لا تبرأ لهم ضغينة، ولا بالأطفال فإنهم جنس لعين، ولا بالزهور فهي تطالعنا ببلاهة، ولا بالأنهار فهي متشعبة بقصد لا تتحول عنه. هيا بنا نمحو كل شيء، كل شيء، هذه هي فلسفتي، فليحيَ العدم إذن، فلا شيء موجود غيره.

السكرتيرة : وكيف يمكن محو كل ذلك ؟

نادا : بالشراب، الشراب حتى الموت فيختفي كل شيء.

السكرتيرة : هذه خطة رديئة ولنا خطة أفضل. ما اسمك ؟

نادا : عدم في عدم.

السكرتيرة : ماذا قلت ؟

نادا : عدم في عدم.

السكرتيرة : إني أسألك عن اسمك.

نادا : هذا هو اسمي.

السكرتيرة : شيء جميل. فمثل هذا الاسم يتيح اشتراكنا معا في أداء العمل كله. تقدم إلى هذه الناحية. ستكون موظفا في مملكتنا.

(يدخل الصياد وتوالي السكرتيرة حديثها)

سيدي القاضي، صديقنا عدم في عدم، أطلعه من فضلك على سير الأمور، على حين تقومون أنتم أيها الحراس ببيع شاراتنا (تتقدم نحو دييجو) صباح الخير. هل لك في شراء إحدى الشارات ؟



دييجو	:	أي شارة تلك ؟
السكرتيرة	:	بطبيعة الحال شارة الانتماء للحكم الجديد الذي أعلنه الطاعون بلسانه عليكم (فترة صمت)، ومع ذلك أنت حرّ في رفضها، إنها لا تفرض على الناس جبرا.
دييجو	:	إذن فأنا أرفض شراءها.
السكرتيرة	:	حسن جدا (تتجه نحو فيكتوريا) وأنت؟
فيكتوريا	:	أنا لا أعرفك.
السكرتيرة	:	عال العال. غير أني أنبهك إلى أن من يرفض حمل الشارة سيضطر إلى حمل غيرها.
دييجو	:	أي شارة إذن ؟
السكرتيرة	:	حسن، شارة من يرفضون حمل الشارة. وهكذا فلأول وهلة يعلم المرء من أمامه.
الصياد	:	اسمحي لي بكلمة...
السكرتيرة	:	(تستدير نحو دييجو وفيكتوريا) إلى اللقاء قريبا (للصياد) ماذا تريد ثانية؟
الصياد	:	(بغضب مطرد) إني قادم من الدور الأول، وقد أجابوني بأنه ينبغي لي أن أعود إلى هنا لكي أحصل على شهادة البقاء في قيد الحياة التي بدونها لا يستطيعون إعطائي الشهادة الصحية.
السكرتيرة	:	هذا أمر كلاسيكي.
الصياد	:	ماذا ؟ كلاسيكي ؟
السكرتيرة		نعم، هذا يدل على أن هذه المدينة بدأت تخضع لإدارة حسنة، إن اقتناعنا أنكم مذنبون، مذنبون لكونكم محكومين بطبيعة الحال، ولذا يجب أن تشعروا أنتم أنفسكم بأنكم مذنبون، ولن تعهدوا في أنفسكم هذا الشعور إلا إذا شعرتم أولا بالتعب. إذن فنحن نتعبكم، هذا كل ما في الأمر. وحين يضنيكم التعب يسير ما تبقى من الأمر تلقائيا.

الصياد	هل لي أن أحصـــل على الأقل على هذه الشـــهادة المباركة بأني مازلت في قيد الحياة ؟
السكرتيرة	من حيث المبدأ لا تستطيع الحصول عليها مادمت في حاجة أولا إلى الشـــهادة الصحية للحصول على شهادة البقاء في قيد الحياة. إذن فلا مخرج في ظاهر الأمر.
الصياد	وإذن ؟
السكرتيرة	بقي أن إرضاءك أصبح معلقا بمزاجنا وحده، وهو ســـريع التقلب ككل مزاج هوائي، إذن سنعطيك هذه الشهادة منحة اســـتثنائية، غير أنها بكل بساطة ليست سارية المفعول إلا لأسبوع واحد، بعد أسبوع سنرى.
الصياد	سترين ماذا ؟
السكرتيرة	سنرى ما إذا كانت ثمة ضرورة لتحريرها؟
الصياد	وإذا لم تجدد ؟
السكرتيرة	مادام بقـــاؤك حيا ســـيصبح غير مضمون بشـــهادة فإننا ســـنلجأ في أغلب الأمر إلى الحذف، سيدي القاضي أعد الشهادة من ثلاث عشرة نسخة.
القاضي الأول	ثلاث عشرة ؟
السكرتيرة	نعم، واحدة لصاحب الشـــأن واثنتا عشـــرة لحســـن سير العمل. (يضاء وسط المشهد)
الطاعون	ابـــدأوا الأعمـــال الكبرى التي لا جدوى منهـــا، وأنت أيتها الصديقـــة العزيزة أعـــدي قوائم توازن بين الذين ســـنعد لترحيلهـــم والذين ســـنضعهم فـــي معســـكرات الاعتقال، واســـتعجلي تحويل الأبرياء إلى مذنبـــين حتى تصبح اليد العاملة كافية. لا ترحيل لمن له قيمة مهمة، ســـوف ينقصنا الرجال بكل تأكيد. أين التعداد ؟
السكرتيرة	يجري إعداده. وكل شـــيء يســـير على ما يرام، يبدو لي أن هؤلاء القوم البسطاء قد فهموا ما قلناه لهم.

الطاعون : ما أسرع إفراطك في الميل إلى الرقة أيتها الصديقة العزيزة، ولك حــرص على أن يكون كلامك مفهومــا وهذا خطأ في مهنتنا، هؤلاء القوم البسطاء – كما تقولين عنهم – لم يفهموا شــيئا بطبيعة الحالة. وليس هذا بالمهم، إنما ألزم اللزوم لا أن يفهمــوا بل أن يجهز بعضهم على بعض، لقد بهرني هذا التعبير الذي نطقت به عفوا، إذ له معنى سديد.

السكرتيرة : أي تعبير تعني ؟

الطاعون : أن يجهز بعضهم على بعض، هيا أيها الناس فليجهز أحدكم على الآخر، آه ياالها من وسيلة مبتكرة لتحقيق الغرض.

السكرتيرة : وسيلة رائعة.

الطاعون : رائعــة، فيهــا كل الغناء، تخيل صورة الإجهــاز، وهو تخيل يرقق القلــب، ثم تصور كيف أن من هو الضحية يســاهم نفســه في الإجهاز عليــه. هذا هو لــكل حكومة صالحة هدفها ودعامتها.

(ضوضاء في غيابة المسرح)

الطاعون : ما هذا ؟

السكرتيرة : إنهن النساء اللائي تملكهن الهياج.

الجوقة : هذه لديها ما تقوله.

الطاعون : تقدمي.

المرأة : (تتقدم)

أين زوجي ؟

الطاعون : حســن، فلننظر في هذا أيضا، إنه خلة قلب الإنســان كما يقولون. هذا الزوج.

ماذا حدث له ؟

الزوجة : لم يعد إلى البيت.

الطاعون : هذا أمر كثير الحدوث. لا تقلقي، فقد وجد فعلا سريرا.

المرأة : هذا رجل يحترم نفسه.

الطاعون : بطبيعة الحال إنه العنقاء بين الطيور. شــوفي شغلك أيتها الصديقة العزيزة.

السكرتيرة : الاسم واللقب.

المرأة : جالفي، أنطونيو

(السكرتيرة تنظر في مفكرتها، وتهمس في أذن الطاعون)

السكرتيرة : حسن. لك أن تسعدي. إن له حياة آمنة.

المرأة : أي حياة ؟

السكرتيرة : حياته في القصر.

الطاعون : نعم. فقد قمت بترحيله إلى القصر مع آخرين كانوا يثورون وأردت إنقاذ حياتهم.

الزوجة : (متراجعة) ماذا فعلت ؟

الطاعون : (بغضب عصبي شديد)

لقد شـــددت بعضهم إلى بعــض وضغطتهم لكيلا تبقى إلا خلاصتهم. كانوا يعيشون حتى الآن في تشتيت ومجون. أما الآن فلا ميوعة بل قدر أكبر من الصلابة. إنهم ينضغطون للفوز بخلاصتهم.

الجوقة : ياللبؤس ! بؤسا لنا !

الطاعون : الزمــوا الصمــت، ولاتبق واحدة منكن فــي بطالة. عليكن بعمل ما، اشــغلن أنفسكن (وقد سرح ذهنه) إنهم يجهزون، إنهم ينشـــغلون، إنهم ينضغطون.. إن اتبــاع قواعد النحو فــي اللغة غنم جميل. إذ يكون لـــه نفع في جميع الأحوال. (إضاءة ســـريعة على مقر حارس المقبرة حيث يجلس نادا مع القاضي وأمام صنوف ممن سادهم التنظيم)

رجل : لقد اشتد الغلاء وأصبحت الرواتب غير كافية.

نادا : كنــا نعلم ذلك، وها هـــي ذي الجداول القياســية للرواتب الجديدة قد تم إعدادها.



الرجل : ماذا ستكون النسبة المئوية للعلاوات.

نادا : (يقرأ)

الأمـــر غاية في البســـاطة: الجـدول القياســـي رقم ١٠٨ قرار إعادة تقســـيم المرتبات الأصليـــة والفرعية في جميع الـــوزارات يقضي بإلغاء مربـــوط أول الدرجة، ويحدد بلا قيد أو شـــرط الانتقال بين الدرجات، ويباح لها بلوغ الحد الأقصى لمربوطها الذي لـــم يتحدد بعد، أما الدرجات بعد طرح العلاوات التي تمـــت الموافقة عليها صوريا بمقتضى الجدول رقم ١٠٧ فتحـــدد مرتباتها وفقا لأول مربوط لها بغير نظر إلى قواعد التنسيق المقررة للوظائف.

الرجل : ولكن كم تكون العلاوة وفق هذا الكلام ؟

نادا : العلاوة ستتقرر فيما بعد، والجاري تطبيقه اليوم هو جدول قياس للمرتبات وسنضيف إليه جدولا آخر، هذا هو كل ما في الأمر.

الرجل : ولكن ما نفع هذا الجدول ؟

نادا : (صائحا) أن تأكلوه وتشربوا ماءه.

(يتقدم رجل آخر)

أنت تريد فتح متجر، فكرة بديعة لعمري. حسن، ابدأ بملء هذه الاستمارة واغمس أصابعك في هذا الحبر وابصم به. تمام.

الرجل : أين أمسح يدي ؟

نادا : ليس هناك مكان لمســـح الأيدي، لأن التنظيم لم يرد به نص تحديد هذا المكان.

الرجل : ولكن لا يمكن أن أبقى بيد ملوثة هكذا.

نادا : ولـــم لا ؟ وعلى كل حال ماذا يهمك من هذا، إذ لم يعد لك الحق في لمس زوجتك، وفوق ذلك في هذا خير لمن كان في مثل حالتك.



الرجل	:	كيف يكون فيه خير ؟
نادا	:	نعــم إن في ذلك إذلالا لك، إذن فهــو خير، ولكن لنعد إلى متجرك، أتفضل الاســتفادة بالمــادة ٢٠٨ من الباب الـ ٦٢ من النشــرة السادسة عشــرة التي ورد بها خامس تنظيم للقواعد العامة، أم بالفقرة ٢٧ من المادة ٢٠٧ من النشــرة الخامسة عشرة التي تعدّ تنظيما للحالات الفردية.
الرجل	:	ولكني لا أعرف هذا ولا ذاك من تلك الأحكام.
نادا	:	بــكل تأكيد أيها الرجل، أنت لا تعرفها. ولا أنا أيضا. ولكن مــادام لا بد من اتخاذ قرار فســوف نجعلك تســتفيد من الاثنين معا.
الرجل	:	هذا فضل كبير ياناادا، وإني أشكرك.
نادا	:	لاتشــكرني، ذلك لأنــه يبدو أن إحدى هــذه المواد تعطيك الحق في أن يكون لك مكانك، أما الأخرى فتسلبك حق بيع أي شيء فيه.
الرجل	:	ما هذا ؟
نادا	:	النظام.
		(تأتي امرأة يتملكها الفزع)
نادا	:	ماذا هناك أيتها المرأة ؟
المرأة	:	لقد احتلوا منزلي.
نادا	:	حسن.
المرأة	:	وقد أعدوا فيه مكاتب إدارية.
نادا	:	أمر طبيعي.
المرأة	:	ولكني أصبحت شــريدة في الطرقات، وقد وعدوا بتوفير مسكن لي.
نادا	:	أنت ترين أنهم فكروا في كل شيء.
المرأة	:	نعــم، ولكن لا بد من تقديم طلب يأخذ مجراه، وفي انتظار ذلك سيبقى أطفالي في الشارع.



نادا	وهذا مبرر أكبر لتقديم طلبك. املئي هذه الاستمارة.
المرأة	(تأخذ الاستمارة) ولكن هل سيسير الطلب بسرعة ؟
نادا	يمكن أن يسير بسرعة بشرط تقديم مبرر عاجل.
المرأة	ما هذا ؟
نادا	مستند يثبت أن الأمر عاجل بالنسبة إليك، لكيلا تظلي في الطريق.
المرأة	ليس لأطفالي سقف يسترهم، أهناك ما هو أدعى إلى الاستعجال من منحهم هذا المأوى؟
نادا	لن يعطوك مسكنا بحجة أن أطفالك في الطريق، ولكن سيعطونك مسكنا لو قدمت شهادة.. الأمران لايستويان.
المرأة	مثل هذا الكلام يستعصي عليّ فهمه. إن الشيطان يتكلم هكذا ولا يفهمه أحد.
نادا	ليس الأمر محض مصادفة أيتها المرأة. إن الأمر يتعلق هنا بالعمل من أجل ألا يفهم أحد أحدا مع استعمال اللغة نفسها. وأستطيع أن أؤكد لك أننا نقترب من اللحظة المثلى التي يتكلم فيها الجميع من دون أن يكون لكلامهم صدى، والتي تتصادم فيها اللغتان المستعملتان في هذه المدينة وتحطيم إحداهما الأخرى في إصرار يجعل كل شيء يتجه حتما نحو النهاية وهي الصمت والموت.
المرأة :	العمل هو أن يأكل الأطفال حتى الشبع، وألا يشعروا بالبرد. العدالة هي أن يعيش صغاري. لقد ولدتهم فوق أرض المرح وقدم البحر مياه تعميدهم، وهم في غير حاجة إلى
معا	ثروات أخرى، ولست أطلب شيئا لهم إلا الخبز اليومي ونوم الفقراء. وهذا لا شيء، ومع ذلك فهذا بالذات هو ما ترفضون إعطاءه، وإذا رفضتم الخبز للفقراء فليس ثمة ترف أو كلام معسول أو وعود غامضة تصفح لكم أبدا.

نادا : اختاري أن تعيشي جاثية على ركبتيك بدلا من أن تموتي واقفة لكي يجد الكون نظامه مقيسا بأذرع المشانق يتقاسمه بشر هدأوا فـــي قبورهم ونمل يعيش بعد اليوم حياة طيبة، كون هو جنة غلاة المتطهرين لا مراعي فيها ولا خبز، تدور فيها

معا شرطة من الملائكة لها أجنحة كبيرة بين السعداء الذين أكلوا حتى الشـــبع من الورق والوصفات المغذية الساجدين أمام رب ســـني يحطم كل شيء وقد عقد العزم يقينا على تبديد الهذيـــان القديم، هذيان عالم جـــاوزت متعته كل الحدود.

نادا : ليحيَ العـــدم. لم يعد أحد يفهم أحـــدا. نحن في اللحظة المثلى.

(إضاءة في الوسط. يلمح في أحد الجوانب أكواخ وأسلاك شـــائكة ومراصد وغيرها من معالم القهر والعداء. يدخل دييجو وهو يرتدي القناع ويبدو من هيئته كأنه كان يفر من مطاردة يلمح معالم القهر والعداء)

دييجو : (موجها كلامه للجوقة)

أين إســـبانيا ؟ أين قادش ؟ إن هذا الديكور لا يمت إلى أي بلد.. إننا في عالم آخر لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه. لماذا أنتم صامتون ؟

الجوقة : إننا خائفون. آه لو هبت الريح.

دييجو : وأنا أيضا خائف. وحسن أن ينفس المرء عن خوفه بالصراخ. اصرخوا وسوف ترد عليكم الريح.

الجوقة : كنا شـــعبا فأصبحنا حشـــدا، كنا ندعى مجاملة للضيافة فأصبحنا نســـتدعى ســـحبا للتحقيق، كنا نتبـــادل الخبز واللبن، واليوم أصبح يخصص لنـــا تموين بالبطاقات. إننا ندبدب بالأقدام. (يدبدبون بالأقدام) نحن ندبدب بالأقدام ونقـــول إن أحدا لن يســـتطيع عمل شـــيء لأحد وإنه لا بد مـــن الانتظار في مكاننا في الصف الذي حدد لنا، اختفت



إسبانيا. لندبدب بالأقدام. لندبدب بالأقدام. إيه أيها الألم، إننا لا ندوس إلا أنفسنا بالأقدام وإننا نختنق في هذه المدينة المقفلة. أو لو هبت الريح.

الطاعون هذا عين الرشاد والحكمة. اقترب يا دييجو، الآن وقد فهمت. (يسمع صوت إشعاعات في السماء).

دييجو نحن أبرياء.

(الطاعون يقهقه ضاحكا)

دييجو (صائحا)

البراءة أيها الجلاد، أتفهم ذلك ؟ البراءة.

الطاعون البراءة لا أعرفها.

دييجو إذن اقترب. أقوانا سيقتل الآخر.

الطاعون الأقوى هو أنا رب البراءة. انظر.

(يصدر إشارة إلى الحراس الذين يتقدمون نحو دييجو. يولي الأخير الأدبار).

الطاعون اجروا خلفه. لا تتركوه يهرب، فالذي يهرب يصبح ملكا لنا. ميزوه بعلامة.

(يجري حراس خلف دييجو. المطاردة تؤدي بحركات تمثيل صامت وتدور على جنبات المسرح، أصوات صفارات تنفخ بالفم وصفارات إنذار)

الجوقة إنه يعدو، هو خائف ويعترف بذلك. إنه فقد السيطرة على نفسه. لقد انتابه الجنون. أما نحن فقد ثبنا إلى الرشاد وأصبحنا نخضع لنظام، ولكن وسط المكاتب تسمع صراخا طويلا مكتوما، صراخ القلوب التي تعاني مع الفراق والتي تحكي لنا عن البحر في النهار وعن رائحة عيدان الغاب قرب المياه في المساء، وعن أذرع زوجاتنا الرطبة أن وجوهنا مختومة وخطواتنا معدودة وساعاتنا منظمة، ولكن قلوبنا ترفض الصمت. إنها ترفض القوائم والشهادات والجدران

التي لا تنتهي والقضبان على النوافذ والصباح المبكر الذي تزعجـــه طلقات البنادق. إنها ترفض كل ذلك مثلما ترفض هـــذا الـــذي يجري أمامنا لكـــي يلوذ ببيـــت هربا من هذا الديكور الذي تشـــكله الظلال والأرقام لكي يجد في نهاية الأمر مأوى، ولكن المـــأوى الوحيد هو البحر الذي تفصلنا عنـــه هذه الجدران، لتهرب الريح حتى نســـتطيع في نهاية الأمر أن نتنفس.

(دييجو يندفع داخل أحـــد البيوت. الحراس يتوقفون أمام الباب ويضعون أمامه رقباء يقفون وقفة الديدبان).

الطاعون : (صارخا) ميزوه بعلامة، ميزوهم جميعا، حتى الكلام الذي لا يقولونه يمكن سماعه. إنهم لا يستطيعون الاحتجاج ولكن صمتهم لـــه صليل. حطموا أفواههـــم وكمموهم وعلموهم الكلمات الرئيســـية حتى يكرروا هم أيضا الشـــيء نفسه، حتى يصبحوا المواطنين الصالحين الذين نحتاج إليهم.

الجزء العلوي من المسرح: يتدفق سيل من الشعارات بنغمة مرتفعة كأنها نداء من مكبرات الصوت وكلما زادت سرعة ترديدها علت قوتها إلى أن غطت همهمات الجوقة المطبقة الأفواه. يسود صمت تام)

طاعون واحد وشعب واحد

انضغطوا فـــي المعتقـــلات، وليجهز بعضكـــم على بعض، واشغلوا أنفسكم.

إن طاعونـــا واحدا جيدا خير من حريتين. عليكم بالترحيل والتعذيب، وستكون هناك بقية مهما كان الأمر.

(إضاءة جهة القاضي)

فيكتوريا : كلا، أيها الأب. إنك لن تســـلم هذه الخادمة العجوز بحجة أن العدوى قد أصابتها. هل نســـيت أنها قامت بتربيتي من دون أن تتبس بأي شكوى.



القاضي : إذا قطعت في الأمر بقرار فمن ذا الذي يجرؤ على مناقشته؟

فيكتوريا : إنك لا تستطيع أن تقرر كل شيء. إن للألم أيضا حقوقه.

القاضي : إن دوري هو حماية هذا البيت بمنع الوباء من الولوج إليه. إني...

(يدخل دييجو فجأة)

القاضي : من ذا الذي سمح لك بالدخول إلى هنا ؟

دييجو : إنه الخوف الذي دفع بي إلى بيتك. وإني هارب من الطاعون.

القاضي : إنك لا تهرب منه ولكن تحمله معك. (يوجه نظر دييجو بإشارة من إصبعه إلى العلامة التي يحملها الآن تحت الإبط). (صمت وصوت صفارتين أو ثلاث من بعيد غادر هذا البيت.

دييجو : أبقني لديك. إذا طردتني فسيخلطونني بالآخرين، ومعني ذلك تكديس الموت.

القاضي : إني خادم القانون القديم، ولا أستطيع استقبالك هنا.

دييجو : لقد كنت تخدم القانون القديم. ولا شأن لك بالقانون الجديد.

القاضي : إني لا أخدم القانون من أجل ما يقضي ولكن لأنه القانون.

دييجو : ولكن إذا كان القانون هو الجريمة ؟

القاضي : إذا أصبحت الجريمة هي القانون فستكف عن كونها جريمة.

دييجو : والفضيلة هي التي ينبغي توقيع العقاب عليها.

القاضي : الواقع أنه ينبغي توقيع العقاب عليها إذا تبجحت وناقشت القانون.

فيكتوريا : يا كازادو، ليس القانون هو الدافع لك على تصرفك، بل هو الخوف.

القاضي : ودييجو هو أيضا خائف.

فيكتوريا : ولكنه لم يخن أحدا.

القاضي : سـوف يخون، كل فرد يخـون لأن كل فرد خائف، وكل فرد خائف، لأن أحدا ليس مطهرا.

فيكتوريا : إني ملك هذا الرجل يا أبي، وقد وافقت أنت على ذلك. ولا يمكن أن تنتزعه مني اليوم بعد أن أعطيتني إياه بالأمس.

القاضي : لـم أقل نعم فيما يتعلق بزواجك، بـل قلت نعم فيما يتعلق برحيلك.

فيكتوريا : كنت أعرف أنك لاتحبني.

القاضي : (ناظرا إليها)

إني أمقت النساء جميعا.

(دقات عنيفة على الباب)

ما هذا ؟

(حارس من الخارج)

إن البيـت قد قضـي عليه بالغلق لإيوائه مشـبوها، جميع السكان مراقبون.

دييجو : (يقهقه ضاحكا)

إن القانـون جيد كما تعلم ذلك حق العلم، ولكنه يعد حديثا نوعا ما فلم تسـتطع أنت أن تحيط بكل جوانبه. القاضي والمتهمون والشهود. ها نحن جميعا أصبحنا إخوة.

(تدخل زوجة القاضي وابنه الصغير وابنته)

الزوجة : لقد انغلق الباب بالمتاريس.

فيكتوريا : لقد قضي على البيت بالغلق.

القاضي : بسببه. وسوف أبلغ عنه، وحينئذ يفتحون الباب.

فيكتوريا : إن الشرف يمنعك من ذلك.



القاضي : إن الشـرف مسـألة خاصة بالناس، ولم يعد ثمة ناس في هذه المدينة.

(تسمع طلقات صفارات وصوت جرس يقترب – دييجو يسمع ويلقي نظرات مجنونة في كل جانب ويمسك فجأة بالطفل)

دييجو : انظر يا رجل القانون. لو أتيت بحركة واحدة فسوف أحطم فم ابنك فوق علامة الطاعون.

فيكتوريا : دييجو، هذه نذالة.

دييجو : لا شيء يسمى نذالة في مدينة الأنذال.

الزوجة : (تهرع نحو القاضي)

عده ياكازادو، عد هذا المجنون بما يريد.

ابنة القاضي : كلا يا أبت لا تفعل شيئا. هذا أمر لايعنينا.

الزوجة : لا تستمع إليها. أنت تعرف تمام المعرفة أنها تكره أخاها.

القاضي : إنها على حق، فهذا أمر لا يعنينا.

الزوجة : وأنت أيضا تكره ابني.

القاضي : ابنك أنت في الحقيقة.

الزوجة : آه. ليـس من الرجولة ألا تتورع عن ذكر أمر سـبق لك أن غفرته.

القاضي : أنـا لم أغفر. لقـد اتبعت القانون الـذي يجعلني أبا لهذا الطفل في نظر الجميع.

فيكتوريا : أهذا صحيح يا أماه ؟

الزوجة : أنت أيضا تحتقرينني.

فيكتوريا : كلا، ولكـن كل شـيء ينهار فـي وقت واحـد. إن النفس لتستريح.

(القاضي يخطو خطوة نحو الباب)

دييجو : النفـس تترنـح ولكن القانون يسـندنا، أليـس كذلك أيها

القاضي، الكل إخوة (يمسك بالطفل أمامه) وأنت أيضا سأمنحك قبلة.

الزوجة : انتظر يا دييجو، أتوسل إليك. لا تكن مثل الذي تحجر حتى أصبح قلبه أيضا من حجر.

(تهرع ناحية الباب تسد الطريق أمام القاضي)

سوف تلين أليس كذلك ؟

ابنة القاضي : لماذا يلين؟ وماذا يستفيد من هذا الطفل غير الشرعي الذي يملأ هذا المكان كله؟

الزوجة : اسكتي، إن الحسد يأكلك، وها أنت قد أصبحت شريرة الخلق من الرأس إلى القدم. (للقاضي) ولكن أنت، أنت الذي تقترب من الموت، أنت تعرف حق المعرفة أن ليس ثمة ما يدعو إلى الحد من هذه الأرض إلا النوم والسلام. أنت تعرف تمام المعرفة أنك ستنام نوما غير هنيء في فراشك المنفرد لو فعلت ذلك.

القاضي : إن القانون في صفي، وهو الذي سيسبب راحتي.

الزوجة : إني أبصق على قانونك. أما أنا ففي صفي الحق، حق أولئك الذين يحبون ألا يفترقوا، حق المذنبين في الحصول على العفو وحق النادمين في الإشادة بهم وتبجيلهم، نعم إني أبصق على قانونك. هل كان القانون في صفك حين قدمت من جانبك اعتذارا لهذا الضابط الذي استفزك للمبارزة ؟ وحين لجأت إلى الغش لتهرب من التجنيد ؟ هل كان القانون في صفك حين دعوت إلى فراشك هذه الفتاة التي كانت تخاصم رئيسها النذل ؟

القاضي : اسكتي أيتها المرأة.

فيكتوريا : أمي.

الزوجة : كلا يا فيكتوريا، لن أسكت. لقد لذت بالصمت سنوات طوالا. فعلت ذلك من أجل شرفي ولوجه الله. أما الشرف

فلم يعد له وجود. وشعرة واحدة من هذا الطفل أثمن عندي من كل شيء. لن أسكت وسأقول على الأقل لهذا الرجل إن الحق لم يكن قط في صفه، ذلك لأن الحق، أتسمع ياكازادو؟ هو مع الذين يتعذبون ويتأوهون ويتألمون، إنه ليس مع الذين يحسبون ويكدسون. هيهات أن يكون معهم.

(دييجو يخلي سبيل الطفل)

ابنة القاضي	:	إنها حقوق الزانية.
الزوجة	:	(صائحة) إني لا أنكر خطئي، بل سأعلنه على العالم أجمع. ولكني وقد حاق بي البؤس أعلم أن للجسد أخطاءه بينما للقلب جرائمه. ومما تقترفه في لهيب الحب ينبغي أن يثير العطف.
الابنة	:	العطف على إناث الكلاب.
الزوجة	:	نعم، لأن لهن بطونا للمتعة والإنجاب.
القاضي	:	إن دفاعك غير صائب يا امرأة، وسوف أبلغ عن هذا الرجل الذي سبب هذا الاضطراب، وسوف أفعل ذلك برضا مزدوج مادمت أفعله باسم القانون وباسم الكراهية.
فيكتوريا	:	تبا لك إذ تنطق بالحقيقة من فورك. إنك لم تحكم قط إلا باسم الكراهية التي تزخرفها وتقول إنك تحكم باسم القانون. وحتى أفضل القوانين قد فسد طعمها في فمك فقد كان الفم المر لهؤلاء الذين لم يحبوا قط. آه! إن التقزز يخنقني. هيا يا دييجو خذنا جميعا بين ذراعيك. ولنتعفن معا. ولكن دع هذا الرجل يعش فالحياة بالنسبة إليه عقاب.
دييجو	:	اتركيني. إني أخجل لرؤية ما وصلنا إليه.
فيكتوريا	:	وأنا أيضا خجلة حتى الموت.

(دييجو يقفز فجأة من النافذة. القاضي يجري هو الآخر. فيكتوريا تهرب من باب خفي).

الزوجة	لقد حان الوقت الذي لا بد أن يتفجر فيه من كل دمل قيحه. نحن لسنا الوحيدين، إن المدينة بأسرها تعاني من نفس الحمى.
القاضي	أيتها الكلبة.
الزوجة	أيها القاضي.
	(ظلام. الإضاءة توجه إلى مقر حارس المقبرة نادا والقاضي يستعدان للانصراف).
نادا	لقد صدر أمر إلى جميع رؤساء الإدارات بأخذ أصوات الواقعين تحت إدارتهم في مصلحة الحكومة الجديدة.
القاضي الأول	إن الأمر ليس بهذه السهولة. إن البعض قد يصوت ضدهم.
نادا	كلا، لو اتبعت المبادئ الصحيحة.
القاضي الأول	المبادئ الصحيحة ؟
نادا	إن المبادئ الصحيحة تقول: إن الانتخاب حر. معنى ذلك أن الأصوات التي في مصلحة الحكومة سيعتبر الإدلاء بها عن تمتع بحرية وإبداء الرأي. أما غيرها من الأصوات فلكي يتم استبعاد كل العقبات الخفية التي ربما اعترضت حرية الانتخابات فإنها ستحصى وفقا لقاعدة الأفضلية بأن يطابق بين متوسط الفروق بين الأصوات المدرجة في القوائم المحلية، وبين حاصل قسمة عدد الأصوات التي لم يدل بها على ثلث عدد الأصوات المستبعدة. معنى هذا واضح؟
القاضي الأول	واضح ياسيدي... أخيرا. أعتقد أنني فهمت.
نادا	إني معجب بك أيها القاضي. أما أنك فهمت أم لا فلا تنس أن النتيجة الحتمية لهذه الطريقة لا بد أن تكون باعتبار الأصوات المعادية للحكومة ملغاة.
القاضي الأول	ولكنك قلت إن الانتخاب حر.



نادا : وإنـــه لكذلك في الواقع. ولكننا ننطلق من مبدأ أن الصوت الذي يقول لا ليس صوتا حرا. إنه منقاد للعواطف فهو إذن صوت تتحكم فيه الشهوات.

القاضي الأول : لم يخطر هذا على ذهني.

نادا : ذلك لأنك لم تكن لديك فكرة صحيحة عما هي الحرية.

(إضاءة في الوســـط. يصل دييجو وفيكتوريا وهما يجريان في مقدمة المسرح)

دييجو : أريـــد الهرب يــا فيكتوريا. لم أعد أعرف مـــا هو الواجب عمله، لقد أسقط في يدي.

فيكتوريا : لاتتركنـــي. الواجب هو في البقاء بالقرب من الذين نحبهم فاصمد واثبت.

دييجو : ولكـــن من فرط اعتدادي بكرامتي لا أرضى أن أحبك. وأنا غير معتز بنفسي.

فيكتوريا : وما الذي يمنعك من الاعتزاز بنفسك ؟

دييجو : أنت، فإني أراك أثبت مني.

فيكتوريا : آه. بحـــق حبنا لا تســـمعني مثل هذا الكلام، وإلا فســـوف أســـقط وأكشـــف لك عن جبني كله، فإني لا أبلغ من القوة هذا الحـــد الذي تظن. إنـــي أتضعضـــع وأتضعضع حين أفكر في اللحظة التي أســـتطيع أن أسلم إليك نفسي. أين العهد الذي كان قلبي يوشـــك فيه على الغرق فور أن يذكر اســـمك؟ أين العهد الذي كنت فيه فور مثولك أمامي أسمع صوتا في دخيلة نفسي يهتف: هذه هي نجدة الغريق. نعم، إنني أتضعضع وأموت من حســـرة طغى عليها الجبن، وإذا كنـــت لا أزال واقفة على قدميَّ لـــلآن فإن دفعة للحب هي التي تقذفني إلى الأمام. أما إذا اختفيت أنت فإن ســـيري سينقطع وسأسقط متهاوية.

دييجو : آه لـــو كنت أســـتطيع على الأقل أن أرتبـــط بك وأن ترتبط



أطرافي بأطرافك ونغرق في أعماق نوم لا نهاية له.

فيكتوريا : إني في انتظارك.

(يتقدم ببطء نحوها وهي تتقدم نحوه. أنظارهما لا تفترق ويوشكان على الالتقاء حين تنتصب السكرتيرة بينهما)

السكرتيرة : ماذا تفعلان ؟

فيكتوريا : (صائحة) هو الحب بكل تأكيد.

(ضجيج هائل في السماء)

السكرتيرة : صه. ثمة كلمات لا يجوز النطق بها. وكان عليكما معرفة أن ذلك ممنوع. (توجه كلامها إلى دييجو) انظر

(تضرب على الإبط وتضع عليه العلامة الثانية)

السكرتيرة : لقد كنت مشبوها. أما الآن فأنت مصاب. (تنظر إلى دييجو) يا للأسف. شاب في مثل هذه الوسامة (لفيكتوريا) معذرة.. ولكني أفضل الرجال على النساء، وأنا متحيزة لهم، عمت مساء.

(دييجو ينظر في ارتياع إلى العلامة الثانية فوق جسمه، ويلقي بنظرات مخبولة حوله، ثم يندفع نحو فيكتوريا، ويمسك بجسمها كله)

دييجو : آه. إني أكره جمالك مادام سيبقى في الوجود من بعدي. عليه اللعنة إذا تمتع به الآخرون.

(يضمها إليه في عنف يكاد يسحقها)

هكذا لن أكون وحدي. ماذا يجديني حبك لو لم يصبه التعفن معي ؟

فيكتوريا : (تتأود) إنك تؤلمني. دعني.

دييجو : أنت خائفة؟ (يضحك كالمجنون ويهزها) أين هي جياد الحب السوداء. أنت عاشقة حين يصفو الجو. ولكن حين تحل المحنة تهرب الجياد. على الأقل فلتموتي معي.



فيكتوريا	معك ولكن لن أموت أبدا وأنا ملتصقة بك، فأنا أكره معالم الخــوف والكراهية التي بدت علــى وجهك. اتركني دعني حرة لكي أبحث فيك عن الحنان القديم. ثم ســيتكلم قلبي من جديد.
دييجو	(يفلتها بعض الشيء) إني لا أريد أن أموت وحدي وأعز من لي في الوجود كله تشيح عني وترفض أن تتبعني.
فيكتوريا	(تلقى بنفســها نحوه) آه يا دييجــو، معك إلى جهنم لو لزم الأمر وســوف نلتقي ثانية... إن ســاقيّ ترتعشــان لصق ساقيك. قبلني لو أن هذه الصرخة التي تتصاعد من أعماق جســدي والتي ســتنطلق، ها هي ذي تنطلق... (تصرخ) آه (يقبلها في انفعال، ثم ينتزع نفســه منهــا، ويتركها ترتعد وسط المسرح)
دييجو	اســتديري نحــوي. كلا كلا ! ليس بك شــيء. لاتوجد أي علامة، لن تكون ثمة نتيجة لهذا الجنون.
فيكتوريا	عد، إذا كنت أرتعد الآن فمن البرد، كان صدرك منذ لحظة يحرق يدي، وكان دمي يجري في جسدي كاللهب، والآن...
دييجو	كلا. اتركيني بمفردي. إني لا أســتطيع أن أتسلى عن هذا الألم.
فيكتوريا	عد، إني لا أطلب شــيئا سوى أن أحترق بنفس الحمى، وأن أتعذب بنفس الجرح في صرخة واحدة.
دييجو	كلا، ســأكون منــذ الآن مــع الآخرين، مع الذيــن يحملون العلامــات. إن عذابهم يروعني ويملؤنــي بتقزز كان حتى الآن يفصلني عن كل شــيء.. ولكني أخيرا أجد نفسي في المصيبة ذاتها. وهم في حاجة إليَّ.
فيكتوريا	إذا كان لا بد أن تموت فسأحسد حتى الأرض التي ستقترن بجسدك.
دييجو	أنت من الجانب الآخر مع هؤلاء الذين يعيشون.

فيكتوريا يمكنني أن أكون معك إذا قبلتني وقتا طويلا.

دييجو لقد حظروا الحب. آه إني لآسف عليك من كل قلبي.

فيكتوريا كلا كلا. أتوسل إليك. لقد فهمت ما يريدون. إنهم يعدّون كل شيء لكي يصبح الحب مستحيلا، ولكني سأكون الأقوى.

دييجو أما أنا فلســـت الأقوى. وليست الهزيمة هي التي كنت أريد اقتسامها معك.

فيكتوريا لا ترضيني ســـوى الحدود القصوى، ولا وســـط عندي ولا أعرف ســـوى حبي. لم يعد شـــيء يخيفني. وحين تتداعى السماء فسوف أتردى في الهوة السحيقة، وأنا أهتف بحبي لو كنت أمسك بيدك.

(يُسمع صراخ)

دييجو الآخرون يصرخون هم أيضا.

فيكتوريا لقد أصبحت صماء حتى الموت.

دييجو انظري.

(عربة الموتى تمر)

فيكتوريا لم تعد عيناي تبصران، فقد بهرهما الحب.

دييجو ولكـــن الألـــم كامن في هـــذه المصائب التي تثقـــل وطأتها علينا.

فيكتوريا ينبغـــي لي أن أكـــد لكي أحمل حبي، فلن أعـــود إلى إثقال كاهلـــي بحمل آلام الناس أيضا، هذا واجب يقع على عاتق الرجـــال. إنه من هـــذا النوع من الواجبـــات غير المجدية، العقيمة، العتيدة التي تشـــغلون بها لكـــي تتفادوا المعركة الوحيدة التي تعد عسيرة، لكي تتفادوا النصر الوحيد الذي يحق لكم الزهو به.

دييجو ما الذي أســـتطيع أن أقهره في هذا العالم، اللهم إلا الظلم الذي وقع علينا.



فيكتوريا	أن تقهر الفجيعة التي منيت بها في نفسك، وكل شيء بعد ذلك هين.
دييجو	إني وحيد، والفجيعة أكبر من أن أستطيع قهرها.
فيكتوريا	أنا بالقرب منك والسلاح في يدي.
دييجو	كم أنت جميلة وكم كنت أحبك لو لم أكن أخشى...
فيكتوريا	لو قصدت أن تحبني لما بقي شيء تخشاه كثيرا.
دييجو	إني أحبك ولكن لا أدري من هو الذي على حق ؟
فيكتوريا	ذلك الذي لا يخشى شيئا وقلبي ليس جبانا. إنه يحترق بلهيب واحد صاف عال مثل تلك النار التي يتبادل بها رجال الجبال عندنا تحية بعضهم لبعض. إن تلك النار تدعوك هي أيضا.. انظر، هذا هو عيد القديس يوحنا توقد فيه النيران.
دييجو	وسط حفر ملأى بالجثث.
فيكتوريا	لتكن حفرا ملأى بالجثث أو لتكن مراعي، فما دخل هذا بحبي، إنه على الأقل لا شر منه على أحد، إنه معطاء كريم، أما جنونك وإخلاصك العقيم فلمن يعود خيرهما ؟ على كل حال ليس لي أنا التي تطعنها كل كلمة منك.
دييجو	أنت أبيّة فلا تبكين. إيه أيها اليأس لماذا ! حل بنا هذا المرض ؟ كم كنت أود أن أحتسي تلك الدموع وبفم لايزال ملتهبا بمرارتها أرشق خدك بقبلات عدد أوراق شجرة الزيتون.
فيكتوريا	آه، ها أنا أعثر عليك، تلك هي لغتنا التي افتقدتها. (تمد له يدها) دعني أتعرف عليك.
	(دييجو يتراجع وهو يشير إلى العلامتين اللتين يحملهما وهي تمد يدها مترددة).
دييجو	أنت أيضا خائفة.



(تلصق يدها على العلامتين وهو يتراجع فزعا وهي تمد ذراعيها)

فيكتوريا : تعال بسرعة. لاتخش شيئا.

(ولكن التأوهات واللعنات تتضاعف، هو ينظر إلى كل جانب كأنه كان مخبولا ثم يولي الأدبار)

فيكتوريا : إيه أيتها الوحدة !

جوقة من النساء : نحن حارسان، إن هذه المسألة لا طاقة لنا على فهمها وعلاجها، ونحن في انتظار نهايتها سنظل نتكتم سرنا إلى أن يأتي الشتاء. وتحل ساعة الحرية حين تصمت تأوهات الرجال فيعودون إلينا مطالبين بها لا غنى لهم عنه، ذكرى البحار الطليقة وسماء الصيف الخالية وعطر الحب الأبدي. أما قبل ذلك فنحن كأوراق الشجر التي جفت وماتت تحت وابل الخريف قد تتطاير وتسبح قليلا في الهواء، فإذا بثقل الماء الذي تسقى به يهوي بها حتى تتوسد الأرض، نحن الآن أيضا نتوسد الأرض، ونحني الظهور ونترقب أن تنقطع أنفاس صرخات كل المعارك، وننصت في أعماق قلوبنا إلى هذا الأنين الشجي لأمواج البحار الهنية وهي ترتد عن الصخور. وحين تتلفع أشجار اللوز بثوب من زهور ناصعة البياض كأنها ندف من الثلج جمدت عليها سوف ننهض من الأرض قليلا استجابة لأول هبوب للأسل، ثم نقف على الأقدام معتدلات في بهاء ربيع اختلس أوانا غير أوانه، كل الذين نحبهم يقبلون إلينا وكلما تقدموا تزداد شبها بهذه القوارب التي اثاقلت إلى رمال الشاطئ ورقدت فوقها إبان جزر البحر، ثم إذا بالمد يقبل فيحتويها ويرفعها قليلا قليلا وقد علق بها كساء لزج من الماء والملح ومن نصيب من روائح شتى نفاذة، إلى أن تطفو أخيرا دون البحر العميق، أفلا يهب الريح ... أفلا يهب الريح !؟



ظلام	(إضاءة على الرصيف. دييجو يدخل ويدعو شخصا يلمحه بعيـــدا جدا في اتجاه البحر. في داخل المســـرح جوقة من الرجال)
دييجو	أو هيه. أو هيه
صوت	أو هيه، أو هيه
	(يظهر ملاح. رأسه فقط هو الذي يتعدى الرصيف).
دييجو	ماذا تفعل ؟
الملاح	إني أنقل مؤونة.
دييجو	للمدينة ؟
الملاح	كلا. المدينة من حيث المبدأ تتولى الإدارة تموينها، بالبطاقات طبعا. أما أنا فأنقل مؤونـــة من الخير من واللبن، ففي عرض البحر سفن ألقت مراسيها، وقد لاذت بها بعض الأسر هربا من العدوى. إني أحمل رسائلهم وأعود إليهم بمؤونتهم.
دييجو	ولكن هذا محظور.
الملاح	إنه محظـــور من الإدارة، ولكني لا أعرف القراءة وكنت في البحر حين أعلن المنادون القانون الجديد.
دييجو	خذني معك.
الملاح	إلى أين ؟
دييجو	إلى البحر، إلى ظهور السفن.
الملاح	تلك مسألة محظورة
دييجو	إنك لم تقرأ القانون ولم تسمعه.
الملاح	آه. إنـــه ليـــس محظورا مـــن الإدارة، ولكن ممـــن هم فوق السفينة. إنك لست مأمونا.
دييجو	كيف إنني لست مأمونا.
الملاح	تستطيع على كل حال أن تحملها معك.



دييجو	ماذا أحمل معي ؟
الملاح	صه (ينظر حوله) الجراثيم بـكـل تأكيد. فقد تحمل إليهم الجراثيم.
دييجو	سأدفع ما يطلب مني.
الملاح	لا تلح فإني ضعيف الإرادة.
دييجو	كم تطلب من النقود ؟
الملاح	هل تأخذ الأمر على عاتق ضميرك؟
دييجو	حسن.
الملاح	اركب، البحر وادع.
	(دييجـو يوشـك على القفـز، ولكن السـكرتيرة تبدو من خلفه)
السكرتيرة	كلا، لن تبحر.
دييجو	ماذا ؟
السكرتيرة	لم يتقرر ذلك، ثم إني أعرفك. ولن تهرب من الميدان.
دييجو	لن يستطيع أحد أن يمنعني من الرحيل.
السكرتيرة	يكفي أن أريد ذلك، وأنا أريده مادام لي شـأن معك... أنت تعرف من أنا.
	(تتراجع قليلا كأنها تشده إلى الخلف. يتبعها)
دييجو	أن أموت هذا ليس بشيء ولكن أن أموت ملوثا.
السكرتيرة	أفهم رأيك، وأنا كما ترى غير مكلفة إلا بالتنفيذ، في الوقت نفسه، ولهذا السبب بعينه منحت لي حقوق عليك سمها إن شئت بحق الفيتو.
	(تتصفح مفكرتها)
دييجو	إن الناس الذين من جنسي لا يمتون بصلة إلا إلى الأرض.
السكرتيرة	هـذا هو ما أردت أن أقول. أنـت في حوزتي على نحو ما،



على نحو ما فحسب، قد لا يكون النحو الذي أفضله، وحين أنظـــر إليك. الواقع أنك تروق لي كثيرا كما تعلم ولكن ثمة أوامر صادرة إليّ.

(تلهو بمفكرتها)

ديبجو : كراهيتك لي أفضل عندي من ابتساماتك. إني أحتقرك.

السكرتيرة : كمـــا تريد فإن تبادل مثل هذا الحديث بيني وبينك مخالف للنظـــام بعض المخالفة، إن الإعياء هو الذي جعل العواطف تتغلب عليّ، من معاناتي للحســـابات التـــي لا تنتهي، وفي أمسية مثل هذه الأمسية أرخي لنفسي زمامها.

(أصابعها تدير المفكرة. يحاول ديبجو أن ينتزعها منها)

السكرتيرة : هذا محال صدقني، وعلى كلٍّ ماذا عســـاك أن تجد فيها، هـــذه مفكرة وليس غيـــر، غير أنها تكفينـــي وهي بمنزلة ملف نصفه لتسجيل الحوادث ونصفه لتلخيص البطاقات، (ثم وهي تضحك) وبها أيضا طالع كل يوم فوق الحســـاب الفلكـــي. إنها المفكـــرة الصغيرة التي تلازمني... لا شـــيء ســـوى ذلك. (تمد له يدها كأنهـــا تريد أن يداعبها، ديبجو يندفع ثانية نحو الملاح)

ديبجو : آه لقد رحل.

السكرتيرة : عجبا، لقد رحل فعلا، ها هو ذا رجل آخر يظن نفسه حرا مع أنه مقيد في السجلات مثل الجميع.

ديبجو : ينتقـــل كلامك من لون إلى لون. تعرفـــين أن هذا هو ما لا يستطيع إنسان احتماله، فلننه المسألة من فضلك.

السكرتيرة : ولكـــن هذا التلون لا مشـــكلة فيه فما هـــو إلا لأنني التزم الصدق دائما. لكل مدينة ملفها، وهذا هو ملف قادش اذكر لك أن التنظيم محكم، ولا ينسى أحدا.

ديبجو : لا ينسى أحدا ولكن الجميع يفلتون من قبضة يدكم.

السكرتيرة : (فـــي غيظ) كلا. مـــا هذا الذي تقـــول ؟ (تفكر) ومع ذلك



هناك استثناءات بين الحين والحين. قد ينسى التنظيم إنسانا ولكن مآل الجميع أن يكشفوا له أنفسهم بأنفسهم ويسترعوا انتباهه إليهم، وأنهم لايتجاوزون مائة عام إلا رأيتهم في زهو كبير لطول عمرهم يا للحمقى، فإن الصحف تعلن خبرهم وتشيد بهم، ما عليَّ إذن إلا أن أصبر وأنتظر، ففي كل صباح تأتيني الصحف وأفلي أخبارها. فإذا وجدت فيها ذكرا لأسمائهم قمت بتسجيلها إنني افطر بأسمائهم إن شئت أن أقول. لا مهرب لهم بطبيعة الحال.

ديبجو : ولكنهم سيكونون قد عاشوا مائة عام وهم ينكرونك كما تتكرك هذه المدينة بأسرها.

السكرتيرة : مائة عام ليست شيئا يذكر. إنها تبهرك لأنك ترى الأشياء فرادى ومن قرب شديد. أما أنا فلي نظرة مستعلية تشمل الأشياء مترابطة في مجموعها، هذا هو تفسير ما غاب عنك، وفي ملف يضم ثلاثمائة واثنين وسبعين ألف اسم، اسألك ما قيمة رجل واحد، حتى ولو بلغ المائة من العمر، ثم إننا نعوض من نخسره من أمثاله بشباب لايتجاوزون العشرين من العمر، فمتوسط الحصيلة ثابت، ولايستدعي ثباته إلا أن نسرع في الحذف قليلا، هذا هو كل ما في الأمر.

(تحذف اسما في الدفتر. صرخة فوق البحر وصوت سقوط في الماء)

السكرتيرة : آه. لقد فعلت ذلك من دون تفكير مني. إنه الملاح. مجرد مصادفة.

(ديبجو ينهض وينظر إليها بتقزز وارتياع)

ديبجو : إني أكاد أتقيأ من فرط تقززي منك.

السكرتيرة : إن مهنتي جحود وأنا أعرف ذلك. إنها متعبة ولكن لا بد من إتقانها، وفي البداية مثلا كنت أتحسس طريقي بعض الشيء، أما الآن فيدي ثابتة.



(تقترب من دييجو)

دييجو — لا تقتربي مني.

السكرتيرة — من قليل لن تكون عودة للوقوع في الخطأ وستصان الأسرار. إنها آلة متقنة كما سترى.

(مع كل جملة منها تزداد اقترابا منه حتى تكاد تلمسه، يمسكها فجأة من خناقها وهو يرتعد من الغضب)

دييجو — خلصيني وأتمي إذن مهزلتك الحقيرة، ماذا تنتظرين؟ أنجزي عملك ولا تعبثي بي، فأنا أسمى منك. اقتليني إذن، تلك هي الوسيلة الوحيدة. أقسم لك. على صون هذا المنهج البديع الذي لا يترك شيئا للصدف. آه، إن قلت إن نظرتك لا تشمل الأشياء إلا في مجموعها، فلأنه حين يكون الحساب بعشرات الألوف فإن هذا وحده هو الذي يسيل له لعابك. إنه يتحول إلى جداول إحصاء، وجداول الإحصاء خرساء، تترجم إلى منحنيات ورسوم بيانية، أليس كذلك ؟ إنه عمل يتناول الأجيال المتعاقبة لا جيلا واحدا، فهو أكثر يسرا، عمل تتاح تأديته في صمت وتحت أنفاس مداد واحد في محبرة. ولكن لا بد لي من تحذيرك، إن رجلا فردا متوحدا تصبح به دنياك أشد ضيقا، لأنه مسكين بأفراحه وأوجاعه، وسأظل مادمت حيا أخلخل نظامك البديع بصرخات أطلقها قد تعد عندكم صدفة، إني أرفضك، أرفضك بكل كياني.

السكرتيرة — أيها الحبيب.

دييجو — اخرسي. إنني أنتمي إلى جنس كان يقدس الموت مثلما يبجل الحياة. ثم جاء رؤساؤك فأصبح الموت والحياة كلاهما عار.

السكرتيرة — صحيح...

دييجو — (يهزها) صحيح أنك تكذبين وسوف تكذبين باستمرار حتى نهاية الزمن. نعم لقد فهمت نهجك. لقد أعطيتهم ألم



الجوع والفراق حتى تلهيهم عـــن ثورتهم. إنك تعملين على إنهاكهـــم والتهام رزقهم حتى لا تكون لهم فســـحة أو همة للغضب، كل منهم في وحدة، على رغم أنه في حشـــد، وأنا أيضـــا وحيد، كل منا أصبح وحيدا بســـبب جبن الآخرين. أما أنا الذي اســـتعدت مثلهم وأشعر بالمذلة معهم فإني مع ذلـــك أعلن لك أنك لا شـــيء وأن هذا النفـــوذ الذي امتد حتـــى جاوز البصر، حتى أظلمت له الســـماء ليس إلا ظلا ألقـــي على الأرض مـــا تلبث الريح الثائـــرة أن تبدده. لقد ظننت كل شيء يمكن أن يتحول إلى أرقام وصيغ. ولكن في قائمتك المباركة نسيت الوردة البرية وعلائم السماء ووجوه الصيـــف وصوت البحر الكبير ولحظـــات التمـزق وغضب النـــاس، (تضحك) لا تضحكي أيتهـــا الحمقاء. لقد ضعتم وأنا أقولها لك. فوســـط أكبـــر انتصاراتكم البادية أنتم قد هزمتـــم لأن في الإنســـان، انظري إليّ، قوة لن تســـتطيعي قهرها، هي جنون محض يتقاسمه الخوف والشجاعة معا، إنها جاهلـــة ومنتصرة إلى الأبد. إن هـــذه القوة هي التي ستنهض، وحينئذ ستعلمين أن انتصارك لم يكن إلا دخانا.

(تضحك)

دييجو	:	لا تضحكي. لا تضحكي إذن.

(تضحك. يصفعها وفي الوقت نفســـه ينتزع رجال الجوقة الكمامات من أفواههـــم ويطلقون صرخة فرح طويلة ولكن وســـط هـــذا الانطلاق يحطـــم دييجـــو قناعه. يمد يده إليه ويتأمله)

السكرتيرة	:	رائع
دييجو	:	ماذا تقولين؟
السكرتيرة	:	إنك رائع في غضبك. إنك تعجبني هكذا أكثر.
دييجو	:	ماذا حدث؟



السكرتيرة: هـا هو ذا أمام نظـرك. لقد اختفت العلامـة عن بدنك. استمر، إنك على الطريق السليم.

دييجو: هل شفيت ؟

السكرتيرة: سأقول لك سرا صغيرا .. إن نظامهم رائع، وأنت على حق، ولكن ثمة خطأ في تركيب آلتهم.

دييجو: لا أفهم.

السكرتيرة: ثمـة خطأ ياحبيبـي... وبقدر ما تعي ذاكرتـي كان دائما يكفـي أن يتغلب رجل على خوفه ويثور حتى تبدأ آلتهم في الصليـل. لا أقول إنها تتوقف فمن أصعب الصعب وقوفها، ولكنها تصلصل وأحيانا تتعصلج حقا وتحرن.

دييجو: لماذا تقولين لي هذا ؟

السكرتيرة: أنـت تعلم أنـه مهما صمد إنسـان لعمل كالـذي أقوم به فستبقى له مكامن ضعفه. وها أنت ذا قد توصلت بمفردك لأن تعرف بعضا منها في نفسي.

دييجو: هل كنت تستثنيني لو إنني لم أضربك ؟

السكرتيرة: كلا. لقد حضرت للإجهاز عليك وفق القاعدة.

دييجو: إني إذن الأقوى.

السكرتيرة: أمازلت تشعر بالخوف ؟

دييجو: كلا.

السكرتيرة: إذن فأنا لا أسـتطيع أن أفعل شـيئا ضـدك. وهذا أيضا ضمـن المنهج، ولكني أسـتطيع أن أقول لـك إن هذه المرة الأولى التي ينال فيها هذا المنهج موافقتي عليه.

(تنسـحب في هدوء. دييجو يتحسـس جسده ويظل ينظر إلى يده، ثم يستدير فجأة في اتجاه التأوهات التي تسمع. يسـير في صمت نحو أحد المرضى الذي يضع كمامة على فمه. مشـهد صامت. دييجو يمد يده نحو الكمامة ويفكها إنه الصياد. يتبادلان النظر في صمت)



الصياد : (بعـــد جهد) عمت مســـاء يا أخي. إني لـــم أتكلم منذ مدة طويلة.

(ديجيو يبتسم له)

الصياد : (رافعا يمناه إلى السماء) ما هذا ؟

(الســـماء. أضيئت فعلا. تهب رياح خفيفـــة يهتز لها أحد الأبواب وترفرف بعض الأقمشة المدلاة من النوافذ. الجموع تحيط بهما)

(الآن وقد خلعوا الكمامات عن أفواههم ورفعوا عيونهم إلى السماء)

ديجيو : رياح البحر.

(ستـــار)

❝ ❝ ❝

القسم الثالث



(يهرول سكان قادش إلى الميدان. دييجو واقف في مكان أعلى منهم ويدير الأعمال. ضوء قوي هو الذي يجعل ديكورات الطاعون أقل روعة للأبصار لأنها زادت اكتمالا وتكشف نسقها)

دييجو أزيلوا النجوم المعلقة بأبدانكم.

(تزال النجوم)

دييجو افتحوا النوافذ.

(تفتح النوافذ)

دييجو هواء. هواء. اجمعوا المرضى.

(حركة)

دييجو لم يعد ثمة مجال للخوف، هذا هو الشرط. كل من يستطيع الوقوف فليقف. لماذا تتراجعون؟ ارفعوا الجباه. فهذه ساعة الفخر. ألقوا بالكمامات عن أفواهكم وصيحوا معي، إنكم لم تعودوا تشعرون بالخوف.

إيه أيتها الثورة! أنت مثال حي للرفض. (يرفعون الأذرع) أنت شرف هذا الشعب، هؤلاء الناس الذين كممت أفواههم، امنحيهم القوة من صيحتك.

الجوقة أيها الأخ، إننا نستمع إليك ونحن البؤساء الذين يعيشون على الزيتون والخبز والذين تعد عندهم البغلة ثروة كبيرة، نحن الذين يلمسون النبيذ مرتين في العام: يوم الولادة ويوم الزواج، لقد بدأنا نشعر بالأمل، ولكن الخوف القديم لم يتجاوز بعد قلوبنا. إن الزيتون والخبز يضيفان طعما للحياة، ومهما قل ما نملك فنحن نخشى أن نفقد كل شيء بفقدنا للحياة.

دييجو سوف تفقدون الزيتون والخبز والحياة لو تركتم الأمور كما تسير الآن. اليوم لا بد لكم من هزيمة الخوف لو شئتم أن تحتفظوا بالخبز فقط. ألا فلتستيقظي يا إسبانيا.

الجوقة	نحـــن فقراء وجهلة، لكن قد قالوا لنا إن الطاعون يســـاير مدار الســـنة، فلـــه ربيعه الذي ينمو وينطـــلق فيه، وصيفه الذي يزهر فيه ثم يأتي الشتاء، وها هو ذا يموت في أغلب الظن، ولكن أحقا جاء الشتاء أيها الأخ ؟ أهو الشتاء ؟ وهذه الريـــح التي هبت للتو، هل هي حقـــا رياح البحر ؟ لقد كنا دائما ندفع الثمن كاملا والنقد هو بؤســـنا فهل ينبغي حقا أن ندفعه الآن والنقد هو دماؤنا.
جوقة من النساء	نحن هنا لنذكركم أهو جدال آخر بينهم حول مسألة لا تهم إلا الرجال؟
	يا للحظة التـــي تضيع ! بالقرنفل بهجـــة أيامنا، بالصوف الأســـود منحة نعاجنا، نذكركم باختصار بأنفاس إسبانيا. نحن ضعيفات ولا نستطيع شـــيئا منكم بعظامكم الكبيرة، ولكن مهما فعلتم فلا تنســـوا وســـط زحمة ظلالكم زهور أجسادنا.
دييجو	إنـــه الطاعون الـــذي امتص لحمنا وفـــرق الأحبة وأصاب بالذبول زهر الأيام. ينبغي أولا أن نكافح ضده.
الجوقة	أهو حقا الشـــتاء ؟ في غاباتنا مازالت أشجار الزان مغطاة بثمار صغيرة يكسوها الشمع وجذوعها تطن بالزنابير، كلا إنه ليس الشتاء بعد.
دييجو	فلتتجاوزوا شتاء الغضب.
الجوقة	ولكن هل نعثـــر على الأمل في خاتمة طريقنا، أم لا بد من الموت في يأس؟
دييجو	مـــن ذا الذي يتكلم عن اليأس، إن اليأس كمامة على الفم. إن رعد الأمل وبرق الســـعادة، همـــا اللذان يخرقان صمت هذه المدينة المتعلقة بســـياج. هبوا واقفـــين كما أقول لكم. إذا شئتم الاحتفاظ بخبز الأمل، أتلفوا شهاداتكم وحطموا زجاج المكاتب وغادروا طوابير الخوف، واهتفوا للحرية في جوانب السماء الأربعة.



الجوقة : نحن أشد الناس بؤساً، والأمل هو ثروتنا الوحيدة فكيف نحرم أنفسنا منه أيها الأخ. إنا جميعا نلقي بهذه الكمامات. (صيحة خلاص كبيرة) آه، على الأرض الجافة ومن خلال شروخ الحرارة هذه هي المرة الأولى التي يهطل فيها المطر هذا هو الخريف الذي يخضر فيه كل شيء، وريح البحر المنعشة. إن الأمل يرفعنا كالموج.

(يخرج دييجو)

(يدخل الطاعون في نفس مستوى دييجو، ولكن من الجانب الآخر. يتبعه السكرتيرة ونادا)

السكرتيرة : ما هي هذه الحكاية ؟ هل يثرثرون الآن ؟ ضعوا كماماتكم.

(بعضهم في الوسط يعيدون وضع الكمامة. ولكن بعض الرجال لحقوا بدييجو وأخذوا ينشطون تحت سيادة النظام)

الطاعون : لقد بدأوا يتحركون.

السكرتيرة : نعم كالعادة.

الطاعون : حسن، ينبغي تشديد الإجراءات.

السكرتيرة : فلنشددها إذن.

(تفتح مفكرتها التي تتصفحها بشيء من الملل)

نادا : على رسلك إذن، نحن نسير على جادة الطريق القويمة واتباع النظام وعدم اتباعه هذه هي خلاصة قواعد السلوك والفلسفة كلها، ولكن في رأيي ياصاحب الفخامة أننا نقصر في المضي إلى الغاية القصوى.

الطاعون : إنك كثير الكلام.

نادا : ذلك لأني متحمس، ولقد تعلمت كثيرا بالقرب منك. المحو هذا هو إنجيلي. ولكن حتى الآن لم تكن لدي أسباب قوية. أما الآن فلدي السبب الذي يخضع للنظام.



الطاعون : إن النظام يمحو كل شيء، إنك لست في الصف، خذ حذرك.

انا : أذكر أنه كان ثمة نظم قبلك، ولكن كان لا بد من اختراع النظام العام الذي يقتضي كل حساب، ووضع الجنس البشري في القائمة السوداء وإبدال الحياة برمتها بفهرست مبوب، ووضع العالم تحت الطلب وتخفيض قيمة السماء والأرض في آخر الأمر.

الطاعون : عد إلى عملك أيها السكير. (إلى السكرتيرة) وأنت استمري.

السكرتيرة : بماذا نبدأ ؟

الطاعون : بمن يصادفك، فهذا أدعى للإرهاب.

(السكرتيرة تحذف اسمين، دقتا إنذار مكتومتان من طبلة، يسقط رجلان، تتراجع الجموع، والذين يعملون تجمد حركتهم وهم مرتاعون، حراس الطاعون يندفعون ويعودون يرسمون الصلبان على الأبواب ويغلقون النوافذ ويخلطون الجثث الخ... دييجو من أعماق المسرح بصوت هادئ)

دييجو : يحيا الموت، إنه لايخيفنا.

(الجميع في مد بعد تراجع، يعود الرجال إلى العمل، الحراس يتراجعون في حركة تؤدى بلا كلام هي عين حركة الجموع من قبل، ولكنها عكس الاتجاه، وتهب الريح حين تتقدم الجموع، ثم يتراجعون حين يعود الحراس للتقدم).

الطاعون : احذفي هذا.

السكرتيرة : مستحيل.

الطاعون : لماذا ؟

السكرتيرة : لم يعد يشعر بالخوف.

الطاعون : حسن، وهو يعرف ماذا سيحل به ؟

السكرتيرة	:	إن لديه بعض الشكوك.
		(تحذف. دقات مكتومة من طبلة. الجموع تتراجع، تكرار للمشهد السابق)
نادا	:	رائع. إنهم يموتون كالذباب. آه لو استطاعت الأرض أن تتفجر.
دييجو	:	(في هدوء) أنقذوا كل من يسقطون.
		(تتقدم الجموع. بالحركة السابقة عينها ولكن في اتجاه عكسي تؤدي من دون كلام)
الطاعون	:	إن تمرده فاق كل حد.
السكرتيرة	:	نعم، كل حد.
الطاعون	:	لماذا تقولين ذلك في كآبة ؟ عسى ألا يكون قد علم منك عزمنا.
السكرتيرة	:	كلا. لا بد أنه اكتشف هذا بمفرده. إنه صاحب بصيرة، هذا هو السبب.
الطاعون	:	إذا كان صاحب بصيرة فأنا صاحب قدرة. ينبغي اتخاذ تدابير أخرى، جاء دورك.
		(يخرج)
		(الجوقة تتخلص من الكمامات)
الجوقة	:	آه (تنهيدة ارتياح) إنه التراجع الأول. إن الوثاق ينحل وعناء السماء قد زال وأنعشها النسيم. لقد عاد خرير الينابيع التي جففها الطاعون بشمسه السوداء، إن الصيف يولي وسنحرم من الكرم، عنبه وعرائشه، ومن الشمام والفول الأخضر والخس وبعدنا بمخبأ شتوي، نحظى فيه بثمار القسطل المشوية، وبشائر الأذرة وحبها لايزال مخضرا وثمار الجوز التي يشبه طعمها وهي غضة طعم الصابون واللبن أمام المدفئة.



النساء	:	نحن جاهلات ولكنا نقول إن هذه النعم ينبغي ألا ندفع لقاءها ثمنا باهظا. في جميع جهات العالم وتحت حكم أي رئيس سوف تكون ثمة دائما حبة من فاكهة طازجة في متناول اليد، وكأس من نبيذ الفقراء ومسامرة نار ولو من غصون الكرم الجافة نتحلق حولها وننتظر أن تمر كل الطوارئ.
		(من بيت القاضي تخرج ابنته من النافذة وتجري لتختبئ وسط النساء)
السكرتيرة	:	(تهبط نحو الجموع)
		لعمري إن المرء ليظن أننا في ثورة. ومع هذا فليس ذلك هو الواقع، وأنتم تعلمون ذلك حق العلم. ثم إنه ليس الشعب الذي سيقوم بالثورة. فهذا أمر عفَّى عليه الزمن كل العفاء. لم تعد الثورات في حاجة إلى ثوار. إن الشرطة اليوم تكفي لكل شيء حتى لقلب الحكومة، أليس هذا أفضل على كل حال ؟ هكذا يستطيع الشعب أن يستريح، بينما تفكر له بعض العقول الراجحة وتقرر بدلا منه مبلغ السعادة التي تفلح له.
الصياد	:	سأسحق فورا هذه الحشرة المؤذية اللعينة.
السكرتيرة	:	ألا ترون أيها الأصدقاء العزاز أنه من الأفضل الوقوف عند هذا الحد، حينما يستقر أحد الأنظمة فإن ضرره أقل من ضرر تبديله، وحتى لو بدا لكم هذا النظام غير محتمل فمن الجائز أن تظفروا ببعض التيسيرات.
امرأة	:	أي تيسيرات تلك ؟
السكرتيرة	:	لست أدري أنا، ولكن أنتن يا نساء لا تجهلن أن أي اضطراب يدفع ثمنه وأن صلحا مشرفا أفضل أحيانا من نصر كاذب.
		(النساء يقتربن. بعض الرجال ينفصلون عن حلقة دييجو)



ديبجو: لا تستمعوا إلى ما تقول. لقد تم الاتفاق على كل حال.

السكرتيرة: مــا الذي تم عليه الاتفاق ؟ إني أتحدث بما عليه الرشـــاد والحكمة ولا أعرف شيئاً غير ذلك.

رجل: عن أي تسويات كنت تتكلمين ؟

السكرتيرة: لابد من التفكير بطبيعة الحال ولكن يمكن مثلاً تكوين لجنة منكم. تعزز بأغلبية الأصوات إجراء الحذف، وستكون هذه اللجنة مطلقة اليد في الســيطرة على هــذا الدفتر الذي يتقرر الحــذف بمقتضاه. لاحظوا أنني أتكلم على ســبيل المثال.

(تهز الدفتر من طرف ذراعها.

أحد الرجال ينتزعه منها)

السكرتيرة: (واضحة الغضب)

أعــد إليَّ هذا الدفتر. أنت تعــرف أنه ثمين وأنه يكفي أن أحذف فيه اسم أحد مواطنيكم حتى يموت من فوره.

(الرجال والنســاء يحيطون بماسك الدفتر فيسود الزحام والحركة)

- ها هو ذا قد أصبح في يدنا.

- لن يكون ثمة موتى.

- لقد نجونا.

(ولكن ابنة القاضي تندفــع وتخطف الدفتر بعنف وتهرب في أحد الأركان وتتصفح تســجيلاته بسرعة وتحذف فيها شيئا. في بيت القاضي صرخة كبيرة وسقوط جسد. يندفع رجال ونساء نحو الفتاة)

صوت: آه أيتها اللعينة. أنت التي يجب حذفك.

(تمتد يد تنتزع الدفتر ويصفق الجميع ويجدون اسمها. يد تشطبه. الفتاة تسقط وهي تصدر صرخة)

نادا	:	(صارخاً) إلى الأمام هيا، أيتحد الجميع من أجل المحو، المسألة لم تعد مسألة القضاء على شيء بالحذف، بل محو المرء نفسه لنفسه، فهيا إلى معركة، المحو إنه التطهير العام.
		(يخرج)
رجل ضخم	:	(يمسك بالدفتر) حقاً هناك قدر من التطهير لابد من إجرائه، فالفرصة جد مواتية لحذف بعض أولئك الذين كانوا يأكلون السكر بينما نموت من الجوع. (الطاعون الذي عاد فظهر ويندفع في قهقهة عالية بينما تعود السكرتيرة وتقف بجانبه. الجميع جامدون وقد رفعوا العيون وثبتوا وهم في ترقب وسط المسرح، بينما ينتشر حراس الطاعون وعلامات النجمة إلى سابق عهدها)
الطاعون لدييجو	:	هاهم أولاء. إنهم يقومون هم أنفسهم بالعمل. أتظن أن معاونتك لها جدوى؟
		(ولكن دييجو والصياد يقفزان إلى وسط المسرح، ويندفعان نحو الرجل حامل الدفتر ويصفعانه ويدفعانه إلى الأرض. دييجو يأخذ الدفتر ويمزقه)
السكرتيرة	:	لا فائدة. لدي نسخة أخرى.
		(دييجو يدفع الرجال إلى الجهة الأخرى)
دييجو	:	بسرعة إلى العمل. لقد غرر بكم.
الطاعون	:	حين يشعرون بالخوف فهو خوف على أنفسهم أما كراهيتهم فهي للآخرين.
دييجو	:	(يعود في مواجهة)
		لاخوف ولا كراهية، هذا هو انتصارنا.
		(تراجع متزايد من الحراس أمام رجال دييجو)
الطاعون	:	سكون. أنا الذي يفسد طعم النبيذ ويجعل الفاكهة تجف. وإني لأقتل الكرمة إذا أردت أن تنبت العنب، وأجعلها



تخضــر إذا أردت لأعضائها الجافــة أن تكون وقودا . إني أمقت أفراحكم البســيطة وأمقت هــذا البلد الذي يدعي أهله أنهــم أحرار مــن دون ان يكونوا أغنيــاء. إني أملك الســجون والجلادين والقوة والدم. ســوف تهدم الحديقة وفوق أطلالها ســيعاني التاريخ سكرات الموت وسط صمت بديــع لمجتمعات بلغت حــد الكمال. الزموا الســكون وإلا حطمت كل شيء.

(وســط فرقعة مروعة يدور نضال يــؤدى بالحركة من دون الكلام. يســمع صوت صليل الأغلال وطنين ودقات الطبلة المنذرة. سيل من الشعارات ولكن كلما تكشف أن الغلبة هي لرجال ديبجــو يأخذ التلاحم في التراخــي ويطغى هتاف الجوقة وإن لم يكن متينا على ضجة الطاعون)

الطاعون : (بحركة غضب شديدة) بقيت الرهائن.

(تصدر منه إشــارة فإذا بحراس الطاعون يغادرون المسرح بينما يعود الآخرون للتجمع)

نادا : (من فوق القصر) ســيظل دائما شــيء يتبقى. إن كل شيء يســتمر في عــدم الاســتمرار ومكاتب مســتمرة، كذلك ســوف تنهار المدينة وتتفجر السماء ويهجر الناس الأرض ولكن المكاتب ســتظل تفتح في ســاعة محــددة لكي تقوم بــإدارة العدم. الأبد هو أنا وجنتي بها أرشــيفها وأختامها ونشافها.

(يخرج)

الجوقة : إنهــم يهربون. انتهى الصيف بالنظر، يحدث إذن أحيانا أن ينتظر الإنســان وحينئذ حلال للنصر أجساد نسائنا تحت وابــل الحب، ها هي الأحضان الهنيئة الحلوة الدافئة كأنها عناقيــد العنب في مطلع الخريف، تطــن حولها الزنابير، والبطون أجــران تتدفق عليها خيرات الكرم وقطف الثمار

يتأجج على قمم الأثداء الثملة. إيه ياحبي إن الرغبة تنفجر كالثمرة الناضجة وأمجاد الأجساد تتدفق أخيرا وفي جميع أرجاء السماء تمتد بالزهور أيد لا يدرك سرها، ويسيل نبيذ ذهبي من نافورة لا تنضب. هذه هي أعياد النصر. فلنبحث عن جميع نسائنا.

(تحمل إلى المسرح في صمت نقالة للمرضى ترقد فيها فيكتوريا).

دييجو (مندفعا نحوها) آه ! هذا يدفع إلى اشتهاء القتل أو الموت. (يصل إلى جوار الجسد الذي بدا بلا حراك) آه أيتها المنتصرة الرائعة الضارية مثل الحب، أديري قليلا وجهك نحوي، عودي يا فيكتوريا. لا تذهبي إلى هذا الجانب الآخر من العالم حيث لا أستطيع أن ألحق بك. لا تتركيني. إن الأرض باردة ياحبي، ياحبي. تماسكي وتمسكي بهذا الطرف من العالم حيث مازلنا قائمين. لا تدعي نفسك تغرق، فلو مت فستصبح الدنيا سوداء وسط الظهيرة فيما تبقى لي من أيام.

جوقة النساء كلامنا الآن صدق، حتى الآن لم يكن على سبيل الجد. فالأمر يتعلق في هذه الساعة بجسد يتألم ويتلوى، كم انبعثت لنا صرخات هي أبدع نطق للإنسان ترحب بالموت وإذا هذا الموت الذي نناديه يعمد إلى تمزيق حلق هذه التي نحبها. ثم يثوب الحب ولكن في اللحظة التي يكون فيها الأوان قد فات.

فيكتوريا (تئن)

دييجو بل هذا هو الأوان. إنها تنهض، دعيني أركِ من جديد، واقفة أمامي مستقيمة العود كالمشعل، تتواثب من شعرك ألسنة لهيبه الأسود، ويسطع الحب على وجهك فقد استضأت بسناه في ظلام المعركة، ذلك أنني حملتك معي إليها، فإن قلبي يتسع لكل احتماله.

فيكتوريا : ستتسـاني يا دييجو، لاريب في ذلك، فإن قلبك لن يتسع لحمـل الفراق كما لم يتسـع لحمل الشـقاء. آه ! إن الموت لعذاب مروع حين يعلم المرء أنه سيذهب في طي النسيان.

(تستدير)

دييجو : لن أنساك. سوف تكون ذاكرتي أطول من حياتي.

جوقة النساء : إيه أيها الجسـد المعذب، كنت من قبل مشتهى العيون، أيها الجمال الملكي الـذي يعكس ضوء النهار، إن الرجل يصرخ من نشواته للمستحيل، أما المرأة فتتألم لما هو جائز وقوعه. انحن عليها يا دييجو، واصرخ بألمك واتهم نفسك، هذه هي لحظة الندم أيها الهارب من سـاحة الشرف، هذا الجسد كان وطنـك الذي من دونه لن تصبح شـيئا، وهيهات لوفاء ذاكرتك أن يكفر عن خطاياك.

(يصـل الطاعون بهدوء بالقرب من دييجو ولا يفصلهما إلا جسد فيكتوريا)

الطاعون : هل تخلي منها يدك ؟ تتقصك القوة وعيناك زائغتان أما أنا فلي ما للمقدرة من عين ثابتة.

(دييجو ينظر إلى جسد فيكتوريا بيأس)

دييجو : (بعد فترة صمت) دعها تعش واقتلني.

الطاعون : ماذا ؟

دييجو : إني أعرض عليك البدل.

الطاعون : أي بدل ؟

دييجو أريد أن أموت بدلا منها.

الطاعون : هذه إحدى الأفكار التـي تراود المرء حين يكون متعبا، هيا لـن يربط قلبك فداؤك لها، فهي قد ذاقت الآن أبلغ عذاب في الاحتضار، فلنقف عند هذا الحد.

دييجو : افتراضـي هو إحـدى الأفكار التي تـراود لا من يكون قد تعب، بل من يكون هو الأقوى.



الطاعون : انظر إلي، إنني القوة نفسها.

دييجو : اخلع زيك الرسمي.

الطاعون : إنك لمجنون.

دييجو : اخلع ملابسك. حين يخلع رجال القوة ملابسهم فإن مرآهم لا يكون جميلا.

الطاعون : ربما. ولكن قوتهم كامنة في اهتدائهم إلى اختراع الزي الرسمي.

دييجو : أما قوتي أنا ففي رفض مثل هذا الزي. إني متمسك بالصفقة التي عرضتها عليك.

الطاعون : فكر على الأقل. إن للحياة جوانبها الطيبة.

دييجو : حياتي ليست شيئا. والذي يعول عليه هو مبررات حياتي، إني لست كلبا.

الطاعون : السيجارة الأولى أفلا تعني عندك شيئا ؟ وروائحة الطين الجاف ساعة الظهيرة، وقد ملأت ألوانها الحفر على جنبات السور، وأمطار المساء والمرأة التي تشوق إليها وهي ماتزال مجهولة لك، وكأس النبيذ الثانية، أكل هذا لا يعني لك شيئا؟

دييجو : قد يكون في هذا كله بعض المتعة، ولكن هذه الراقدة ستعيش أفضل مني.

الطاعون : كلا، لو كففت عن الانشغال بالآخرين.

دييجو : هذا الطريق الذي أسير فيه إن سلكه إنسان امتنع عليه التوقف حتى لو أراد ذلك. لن تفلت مني.

الطاعون : (مغيرا لهجته) أصغ إليَّ. إذا عرضت عليَّ حياتك بدلا من حياة هذه فسأضطر لقبولها وستعيش هذه المرأة. ولكني أعرض عليك صفقة أخرى.

أمنحك حياة هذه المرأة وأتركما تهربان أنتما الاثنان بشرط أن تتركاني أسوي أموري مع هذه المدينة.



دييجو : كلا، إني أعرف قدراتي.

الطاعون : في هذه الحالة سأكون صريحا معك. لا بد لي أن أكون سيد كل شيء والألم أصبح سيد كل شيء. وإذا أفلت مني فإن المدينة بأسرها تفلت مني، تلك هي القاعدة، إنها قاعدة قديمة لا أعرف ممن ورثناها.

دييجو : أما أنا فإني أعرف جواب سؤالك، إنها موروثة من أغوار الحقب. إنها أكبر منك وأعلى من مشانقك، إنها قاعدة الطبيعة. لقد انتصرنا.

الطاعون : ليس بعد، مازال هذا الجسد لي، إنه رهينتي، والرهينة هي قوتي الأخيرة، انظر إليه لو أن لامرأة وجه الحياة فهي هذه المرأة. إنها تستحق الحياة، وأنت تريد أن تجعلها تعيش، وأنا مكره على أخذها منك، ولكن هذا سيكون إما في مقابل حياتك أنت وإما في مقابل حرية هذه المدينة، لك الخيار.

(دييجو ينظر إلى فيكتوريا. في عمق المسرح همهمة أصوات تعلوها الكمامات)

دييجو : (يستدير نحو الجوقة)

ما أشد نكبة الإنسان بالموت.

الطاعون : نعم هو نكبة.

دييجو : ولكنه نكبة للناس جميعا.

الطاعون : أيها الأحمق، إن عشر سنوات في حب هذه المرأة أفضل من قرن من الحرية لهؤلاء الناس.

دييجو : حب هذه المرأة هو مملكتي أنا، أستطيع أن أفعل بها ما أشاء. أما حرية هؤلاء الناس فهي ملك لهم، ولا أستطيع التصرف فيها.

الطاعون : لا سعادة لك من دون ايذاء الآخرين. تلك عدالة هذه الأرض.

ديجو	:	إنني لم أولد لأقر مثل هذه العدالة.
الطاعون	:	مــن ذا الذي يطلب إليك إقرارها ؟ إن نظام العالم لا يتغير وفق رغباتك، وإذا أردت له أن يتغير فتخلَّ عن أحلامك ولا تحسب الا حساب ما هو واقع.
ديجو	:	كلا إني أعرف الوصفة. لا بد من القتل لإلغاء جريمة القتل، واللجــوء إلى العنف لعلاج الظــلم. منذ قرون وهذه الحال تدوم، ومنذ قرون ساد جنسك يملأون بالقيح جراح العالم بحجــة علاجهــا، ويداومون مع ذلك في إطــراء وصفتهم مادام أحد لا يضحك ساخرا منهم في وجوههم.
الطاعون	:	إن أحدا لا يضحك لأنــي أنفذ. إني رجل فعال. فعّالٌ بكل تأكيد وعملي مثل الفأس.
الطاعون	:	إن الإنسان يكفيه على الأقل أن يتأمل الناس ليدرك أن كل عدالة صالحة لهم.
ديجو	:	منذ أن أغلقت أبواب هذه المدينة سنحت الفرصة كاملة لأن أتأملهم.
الطاعون	:	إذن أنت تعــرف الآن أنهم يتركونك دائما بمفردك والرجل الذي يعيش بمفرده لا بد أن يموت.
ديجو	:	كلا، هذا خطأ، لو كنت وحيدا لأصبح كل شيء سهلا. ولكن سواء رضوا أم لم يرضوا سيظلون معي.
الطاعون	:	قطيــع لا يشـــرح النفس فـــي الحقيقة، ولكن تبـــدو عليه القوة.
ديجو	:	أعرف أنهم ليسوا أطهارا، وأنا كذلك مثلهم.
الطاعون	:	زمن العبيد.
ديجو	:	زمن الرجال الأحرار.
الطاعون	:	إنك لتدهشني. عبثا بحثت عن الأحرار، أين هم ؟
ديجو	:	إما أحياء في سجونك وإما أموات في الحفر التي شققتها



لتكديس الجثث. والعبيد هم الذين يتربعون فوق العروش.

الطاعون: اجعل رجالك الأحرار يرتدون زي الشـــرطة، وستعرف ماذا يصبحون.

دييجو: صحيح أنه يحدث لهم أن يصبحوا جبناء قساة ولهذا لاحق لهم كما لاحق لك في التســلط، ما من رجل يتوافر له من الفضائل ما يبرر التسليم له بالسلطان المطلق، ولهذا أيضا كان حق هؤلاء الرجال هو حقهم في الرحمة التي ســتحرم أنت منها.

الطاعون: الجــبن هو الحياة كما يحيونها، صغار النفوس، أرباب عوز وقعود عند السفح من العجز عن بلوغ القمم.

دييجو: وإني لأتمسك بهم وهم بين بين في مثل هذه السفوح، فإذا لم يكن لي إخلاص للواقع المهين الذي أتحمله معهم فكيف يكــون لي إخلاص لمن هو عندي أكبر مقاما وأشــد معاناة للوحدة ؟

الطاعون: إن الإخــلاص الوحيــد الذي أعرفه هو الاحتقار، (يشــير إلى الجوقة المتهالكة في الســاحة) انظر ثمة ما يدعو إلى ذلك.

دييجو: إنــي لا أحتقر إلا الجلادين، ومهمــا فعلت فهؤلاء الرجال سيكونون أكبر منك، وإذا حدث لهم مرة أن يقتلوا فهذا ليس إلا من جنون عابر. أما أنت فتذبح باسم القانون والمنطق، لا تهزأ من رؤوســهم المطأطأة، فمنذ قرون ومذنبات الخوف تمر مــن فوقهم. ولا تضحك من ســمات الخــوف البادية عليهم، فمنذ قرون وهم يموتون ويتمزق حبهم.

إن أكبر جرائمهم ســيتوافر لها العذر دائما، ولكني لا أجد عذرا للجريمة التي كانت دائما تقترف ضدهم، بدا لك في النهاية أن تقننها لهم وسط النظام القذر الذي أتيت به أنت (الطاعون يتقدم نحوه) إني لن أرخي نظري.



الطاعون	لن ترخيه، هذا ما تراه عيني إذن أفضل أن أقول لك إنك انتصرت في الاختيار النهائي. لو أنك تركت لي هذه المدينة لضاعت منك هذه المرأة وضعت معها. أما الآن فإن لهذه المدينة جميع فرص التحرير. وكما ترى يكفي لذلك أن يأتي مجنون مثلك. المجنون يموت بلا ريب. ولكن في النهاية وسواء قصر أو طال الأمد ستكتب لهم النجاة (ظلام)، وهؤلاء الباقون غير جديرين بالنجاة.
دييجو	إذن سيموت المجنون.
الطاعون	آه. هل هذا لا يرضيك ؟ ليس هذا ظني، إنها وفق التقاليد من قديم، لحظة من التردد أمام الموت، ثم تكون الكبرياء هي الأقوى.
دييجو	كنت متعطشا للشرف، فهل لا أجد الشرف اليوم إلا بين الموتى ؟
الطاعون	لقد سبق لي أن قلتها، إن الكبرياء تقتلهم. ولكن هذا أمر مضن بالنسبة إلى الرجل المسن الذي أصبحته.
	(بصوت ينم عن القسوة) استعد
دييجو	إني مستعد
الطاعون	ها هي العلامات. إنها تؤلم (دييجو ينظر في ارتياح إلى العلامات التي ظهرت من جديد عليه) لتتعذب قليلا قبل أن تموت. تلك على الأقل هي قاعدتي. حين تحرمني الكراهية يكون عذاب الآخرين حينئذ مثل الندى. تأوه قليلا فهذا يريحك، ودعني أنظر إليك وأنت تتعذب قبل أن أغادر هذه المدينة (ينظر إلى السكرتيرة) هيا، أنت، إلى العمل الآن.
السكرتيرة	نعم، إن لم يكن ثمة مفر.
الطاعون	أنت قد تعبت، هيه.
	(السكرتيرة تجيب بنعم بإشارة من رأسها، وفي اللحظة نفسها



تغير مظهرها وتصبح امرأة شمطاء تحمل قناع الموت)

الطاعون	:	كان ظني دائما أنك لا تحملين قدرا كافيا من الكراهية، ولكن كراهيتي أنا في حاجة إلى ضحايا جدد. أسرعي بهذه الضحية، ثم نبدأ من جديد في مكان آخر.
السكرتيرة	:	إن الكراهية لا تسندني في الواقع مادامت ليست من صميم عملي. ولكن الذنب ذنبك على نحو ما. فمن كثرة ما يعمل المرء على البطاقات ينسى أن يترك لعاطفته القياد.
الطاعون		هذا مجرد كلام في كلام، وإذا كنت تبحثين عن سند (تشير إلى دييجو الذي جثا على ركبتيه) خذيه في غمرة الفرح بالتحطيم. ذلك من صميم عملك.
السكرتيرة	:	لنحطم إذن، ولكني لست على راحتي.
الطاعون	:	باسم ماذا تناقشين أوامري ؟
السكرتيرة	:	باسم الذكرى. فلدي بعض الذكريات القديمة. لقد كنت حرة قبلك وحليفة لمشيئة الصدف. حينئذ لم يكن أحد يكرهني، وكنت أنا التي تختتم كل أمر وتثبت الحب وتصوغ لكل أقدار قوالبها وكان لي استقرار. وهكذا أصبحت يدي لا ينجم منها خير بعد أن كانت تجود بالعون. ولكنك وضعتني في خدمة المنطق والنظام. وهكذا أفسدت اليد التي كانت أحيانا تتقدم للإنقاذ.
الطاعون	:	من ذا الذي يطلب منك إنقاذا.
السكرتيرة		هؤلاء الذين هم أقل عظمة من الألم. الجميع تقريبا. عهدت معهم أن أعمل برضاهم. فكان لي مكان في الوجود يوافق خصلتي. أما اليوم فإني أفرض عليهم إرادتي قهرا فأصبح الجميع يكرهونني إلى آخر رمق في حياتهم، وربما كان هذا هو السبب في أنني كنت أحب هذا الذي تأمرني بقتله. لقد اختارني اختيارا حرا وأعرب لي عن إشفاقه عليّ بالأسلوب الذي يوافق خصلته. إني أحب هؤلاء الذين

يضربون لي المواعيد.

الطاعون	:	حذار من إثارتي. نحن لسنا في حاجة إلى الشفقة.
السكرتيرة	:	من ذا الذي يحتاج إلى الشفقة غير هؤلاء الذين لا يرحمون أحدا. وحين أقول إنني أحب هذا فإني أقصد أنني أحسده، فالحب عندنا نحن الغزاة لا يتجلى إلا في صورة تعسة، أنت قلت ذلك وتعرف أن هذا هو الذي يجعلنا نستحق أن يرثى لنا بعض الرثاء.
الطاعون	:	آمرك بالتزام الصمت.
السكرتيرة	:	أنت تعرف ذلك جيدا، وتعرف كذلك أنه من كثرة ما يقتل المرء ينساق إلى حد براءة هؤلاء الذين يقتلهم. آه ! ولو للحظة واحدة دعني أوقف هذا المنطق الذي لا ينتهي وأحلم أنني أخيرا أستند إلى جسد. إني مجججة الظلال وأحسد هؤلاء البؤساء جميعا. نعم أحسد حتى هذه المرأة (تشير إلى فيكتوريا) التي لن تسترد الحياة إلا لترسل الصرخات المتوحشة، إنها على الأقل سوف تستند على آلامها.

(دييجو يسقط ويكاد يفترش الأرض، الطاعون ينهض)

الطاعون	:	قف أيها الرجل. إن النهاية لايمكن أن تأتي من دون أن تقوم بفعل ما يلزم. وأنت ترى أنها في اللحظة الراهنة تستسلم للعواطف. ولكن لا تخش شيئا. سوف تفعل ما يلزم فهذا ضمن القاعدة والوظيفة. إن الآلة تصلصل بعض الشيء هذا كل ما في الأمر. وقبل أن تحزن وتتعصلج انعم بسعادتك أيها الأحمق فإني أرد لك هذه المدينة.

(صيحات الفرح من الجوقة. الطاعون يستدير نحوهم) نعم، إني ماض ولكن لا تتصوروا فإني راض عن نفسي. هنا أيضا كان عملنا على ما يرام، إني أحب الضجة التي تثار حول اسمي. وأعرف الآن أنكم لا تنسونني، انظروا إليّ.



انظروا للمرة الأخير. القوة الوحيدة في هذا العالم. تعرفوا على سيدكم الحق وتعلموا الخوف. (يضحك) من قبل كنتم تزعمون أنكم تخافون سـيدكم وأقداره، وكان سيدكم هذا فوضويا يخلط بين الأنواع، يحسب أن في مقدوره أن يكون جبارا وطيبا في آن واحد، وكان مسـلكه يخلو من الإصرار والإخـلاص، هذا ما ينبغي الجهر بـه، أما أنا فقد أخذت الجبروت وحده، اخترت السـيطرة وأنتم تعرفون الآن أنها أدهى من الجحيم.

منذ آلاف السنين، وأنا أملأ مدنكم وحقولكم بحفر تتكدس فيها الجثث. وبفضل موتاي زادت خصوبة الرمال في ليبيا وإثيوبيـا السـوداء وأرض فارس مازالت دسـمة من عرق ضحاياي. ولقد ملأت أثينا بنيران التطهير وأشـعلت على شـواطئها آلاف الحرائق الجنائزية. وغطيت بحر اليونان برماد البشـر حتـى أضحى لونـه كابيا. والآلهـة، الآلهة المسـاكين أنفسـهم أصابهم التقزز من ذلـك حتى أعماق قلوبهم، وحين حلت الكنائس محل المعابد ملأها فرسـاني السود بالأجساد الصارخة. على القارات الخمس وعلى مر القرون قتلت من دون هوادة ومن دون ضيق.

لا لم يكن عملا بالغ السـوء، طبعا كان له معنى ولكن ليس المعنى كله في تمامه، أقول لكم لو سألتم رأيي إن نزول الموت بإنسـان قد يبعث على الانتعاش ولكنـه لايعد ربحا جنيا، والخلاصة أن قيمة إنسـان تسلب منه الحياة فيصبح ميتا هي أقل فوزا من قيمة إنسـان تسـلب منه الحرية فيصبح عبدا، كذلك كان المثل الأعلى هو الظفر بفضل نزول الموت بأقلية يتم اختيارها اختيارا حسـنا، وخطة عملنا اليوم قد بلغـت كمالها، لذلك فبعـد أن قضينا بالقتل والإذلال على القدر الكافي من الناس هنا فسندفع شعوبا بأكملها للجثو على الأرض، فلا جمال ولا مجد يقف في سبيلنا سننتصر

على كل الحواثل.

السكرتيرة : سوف ننتصر على كل الحواثل ما عدا عزة النفس.

الطاعون : ربما تصاب عزة النفس بالإعياء والإنسان أذكى مما يظن به، (من بعيد هرج ومرج وأصوات أبواق) أنصتوا لهذه الضجة، إن حسن حظي يسعفني من جديد بفرصة للبرهان على صدق حكمي، ها هم أولاء سادتكم القدامى الذين ستجدونهم في عمى عن جراح الآخرين وفي نشوة الطرب لسيطرة الجمود والنسيان. ولن ينفد لكم صبر على رؤية السخافة تنتصر بلا امتشاق لسلاح. إن القسوة تلد الثورة، أما الاستهزاء بالعقل فيثبط الشجاعة، المجد للأغبياء لأنهم هم الذين يمهدون لي الطريق، فهم عماد قوتي وأملي. ربما سيأتي يوم تبدو لكم فيه كل تضحية بلا جدوى وتخمد فيه أخيرا لثوراتكم القذرة صرخاتها التي لا تنقطع، في هذا اليوم سوف أسود وسط عبودية في صمتها النهائي، (يضحك) إنها مسألة تثبت بالرأي أليس كذلك ؟ ولكن ثقوا بهذا فإن لي جبينا مختصرا شأن العنيدين.

(يسير نحو غياية المسرح)

السكرتيرة : إني أكبر منك سنا وأعرف أن حبهم له أيضا تشبثه.

الطاعون : الحب ؟ ما هو الحب ؟

السكرتيرة : انهضي أيتها المرأة، فقد حل بي الإعياء، ولا بد من إنهاء هذا الأمر.

(تنهض فيكتوريا، ولكن دييجو يسقط في اللحظة ذاتها السكرتيرة تتراجع قليلا في الظل. فيكتوريا تندفع نحو دييجو).

فيكتوريا : آه يا دييجو، ماذا فعلت بسعادتنا ؟

دييجو : الوداع يافيكتوريا إني راض.

فيكتوريا : لا تقل ذلك ياحبي، هذا كلام الرجال، كلام الرجال المروع.



(تبكي) ليس لأحد الحق في أن يكون راضيا بالموت.

ديبجو : إني راض يافيكتوريا. لقد فعلت ما ينبغي أن أفعل.

فيكتوريا : كلا. كان لابد من تفضيلي على السماء ذاتها. كان ينبغي تفضيلي على الأرض كلها.

ديبجو : إن موقفي من الموت موقف سليم، وفي ذلك قوتي ولكنها قوة تفترس كل شيء وليس للسعادة مكان فيها.

فيكتوريا : ماذا كانت تجديني قوتك ؟ لم أحب قوة بل أحببت رجلا.

ديبجو لقد امتصت هذه المعركة دمي، لم أعد رجلا ومن الحق أن أموت.

فيكتوريا : (تتطرح عليه) إذن احملني معك.

ديبجو : كلا، إن هذا العالم في حاجة إليك. إنه في حاجة إلى نسائنا لكي يعلمن الناس الحياة. أما نحن فقد كنا دائما غير قادرين إلا على الموت.

فيكتوريا : أفما ترى أنه كان من أبسط الأمور أن نتحاب في صمت، وأن نتألم كما ينبغي أن نتألم، لقد كنت أفضل أن يردك الخوف.

ديبجو : (ناظرا إلى فيكتوريا)

لقد أحببتك من أعماق نفسي.

فيكتوريا : (صائحة) هذا كان لا يكفيني، كلا ليس فيه كل الكفاية في انتفاعي بنفسك وحدها.

(السكرتيرة تقرب يدها من ديبجو، مشهد احتضار صامت يبدأ. النساء يندفعن نحو فيكتوريا ويحطن بها)

النساء : تعسا له، تعسا لكل من يهجرون أجسادنا.

يالبؤسنا، نحن بالأخص اللاتي أصبح الهجر نصيبهن، وبقي لنا على مر السنين أن نتحمل هذا العالم الذي زعم الرجال من غرورهم أنهم قادرون على إصلاحه. آه، مادام كل ما



نملك قد استحال إنقاذه فلنتعلم كيف نصون بيت الحب،
فليأت الطاعون، فلتأت الحرب في حمى الأبواب الموصدة
سوف ندافع وأنتم إلى جانبنا حتى النهاية، وحينئذ بدلا
من هذه الميتة في وحدة تتناهبها صرعات المبادئ وتزخر
بالشعارات سوف تعرفون ميتة الجماعة معا، أنتم ونحن
ملتحمون معا في عناق مع الحب له ضراوته، ولكن الرجال
يفضلون اعتناق المبادئ، كل منهم يفر من أمه وينفصل
عن حبيبته، مندفعا بحثا عن المغامرة، مطعون بلا جرح
مذبوح بلا سكين، صائد خيالات ومنشد متوحد ينادي إليه
تحت سماء صامتة، عودة لقاء مستحيلة، يمضي من وحدة
فتتلقفه وحدة إلى أن يبلغ آخر انقطاع له عن العالم، الموت
في تيه الصحراء.

(دييجو يموت)

(النساء يولولن في حين تهب الرياح بمزيد من القوة)

السكرتيرة : لا تبكين أيتها النساء. إن الأرض حلوة لهؤلاء الذين أحبوها كثيرا.

(تخرج)

(فيكتوريا والنساء ينتحين جانبا حاملات دييجو، وتتجدد الضوضاء في عمق المسرح. تسمع موسيقى جديدة ويسمع صراخ نادا على التحصينات).

نادا : ها هي الزمرة القديمة قد عادت، حكام الماضي حكام الأبد، المتحجرون، ملاذ الاطمئنان والراحة، أشباه الطرق المسدودة، أصحاب الجلود البراقة، أرباب التقاليد الراسخة نجمهم في صعود ووجوه ناعمة اجتث شعرها من منبته، إن الصدور كلها تتنفس الصعداء، فقد زال الغم بطبيعة الحال. ها هم المتكلفون في حوانيتهم الصغيرة بتفصيل ثياب الكراهية، سيلبس كل منكم حسب مقاسه،

ولكن لاتضطربوا فإن خطتهم المثلى، بدلا من أن يسدوا أفواه الذين يصرخون بآلامهم يعمدون هم إلى سد آذانهم، كونوا صما بعد أن كنتم خرسا، انتبهوا، إن الذين يكتبون التاريخ قد عادوا، ستكون أول عنايتهم بالأبطال، سيهيئون لهم مقاما رطبا مريحا تحت بلاط قبر، لا تشتكوا من ذلك فمن الحق أن الناس فوق هذا البلاط خليط. (في عمق المسرح حفلات رسمية تؤدى بالحركة بدون الكلام) تأملوهم لتروا ما ظننتم أنهم فاعلوه. إنهم يلبسون النياشين وولائم الكراهية معدة على الدوام. إن الأرض المنهكة مغطاة بخشب الموت على المشانق، ودماء من أطلقتم عليهم لقب الحكماء العادلين أقطاب الزمان لاتزال تبرق على جدران هذا العالم. أما أصحابنا هؤلاء فماذا هم يفعلون الآن في ظنكم ؟ إنهم يلبسون النياشين.. افرحوا فسوف تشنف آذانَكم خطبُ التهنئة بنجاحكم في الامتحان، ولكن قبل أن يدفع بالمنصة إلى الأمام دعوني أسمعكم خلاصة خطبتي أنا، إن الذي أحببته رغم أنفه قد مات مسروقا مني (الصياد يندفع نحو نادا فيمنعه الحراس) أرى أيها الصياد أن الحكومات تتعاقب وتمر، ولكن الشرطة تبقى، إذن فثمة عدالة.

الجوقة : كلا، ليس ثمة عدالة ولكن ثمة حدود. كل من يزعمون أنهم طلقاء من القواعد. وكذلك كل من يريدون أن يجعلوا لكل شيء قاعدة، كلا الطرفين على حد سواء قد جاوز الحدود، افتحوا الأبواب، وليأت الريح والثلج لفلك هذه المدينة حتى تبرق.

(من الأبواب التي تفتح تهب الرياح مطردة القوة)

نادا : ثمة عدالة، ولكن العدالة التي يقيمونها تشمئز منها نفسي، نعم ستبدأون من جديد، ولكن الأمر لم يعد يعنيني. لا تتوقعوا مني أن أقدم لكم نفسي لكي يقع في أيديكم من



كملك ذنوبه، فإني لا أعد كآبة المذنبين من الفضائل التي خلقت لها. أيها العالم الذي عرفناه من سالف الزمان، ينبغي لك أن ترحل. إن جلاديك قد أصابهم الإعياء وكراهيتهم قد ربد بإفراط زوارها، إني عليم بأشياء كثيرة حتى الاحتقار، وقد ولى أوانه وانقضى. وداعا أيها الناس الطيبون، ستذكرون ذات يوم ما أقوله لكم الآن، لا تطيب الحياة عند حب الإنسان شيئا لا يعتد به.

(وسط الرياح التي تهب كالعاصفة ناداً يعدو إلى الشاطئ ويلقي بنفسه في البحر. الصياد يجري خلفه)

الصياد : لقد سقط. والأمواج الثائرة تضربه وتخنقه في لبدتها. إن هذا الفم الكاذب يمتلئ بالملح وسيلوذ أخيرا بالصمت. انظروا البحر الثائر له الآن لون شقائق النعمان. إنه ينتقم لنا وغضبه هو غضبنا. إنه يدعو إلى اتحاد جميع أبناء البشر بالبحر، إلى اجتماع المنعزلين، إيه أيتها الأمواج! إيه أيها البحر يا موطن الثائرين! هذا هو شعبك الذي لن يستسلم أبدا، إن الموجة الكبرى التي تكتمها في أعماقك وترضعها بمرارة مياهك سوف تطيح بمدنكم البشعة.

(ستار)

❝ ❝ ❝


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET